EIF e.V.

مسلمو الغرب

تطلعات ومخاوف

د . صلاح الدين النكدلي

الطبعة الأولى

شعبان ١٤٣٠ هـ ، آب / أغسطس ٢٠٠٩ م

جميع الحقوق محفوظة للمنتدى الإسلامي الأوروبي للثقافة والتربية والتواصل الإنساني والحضاري

العنوان :

European Islamic Forum e.V. (EIF e.V.)
Charlotten-Str. 14
52070 Aachen
Germany
E-mail: eif@skynet.be
Web site : www.islameuropa.eu

1 Auflage, 08.2009

الطبعة الشبكية الأولى

ربيع الأول ١٤٣١ هـ ، آذار / مارس ٢٠١٠م

هذه الطبعة خاصة بالدار الإسلامية للإعلام – ألمانيا

© *Islamischer Info. Dienst Verlag*

العنوان

I.I.D e.V.
P.O.Box: 100810
D-52008 Aachen
Germany

Tel: + 49 241-538373
Fax: + 49 241-538887
Email: iid@iid-alraid.com
Website: www.iid-alraid.com

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي كتّابها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين .. والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين

EIF e.V.

الفهرس

تقديم	٥
المقدّمة	٧
المسلمون في غرب أوروبا	٩
دعوة إلى فهم الغرب	١٦
مسلمو الغرب وحق التدين	٢١
تطور الفكر السياسي للمسلمين في الغرب	٢٦
الحاجة إلى أدباء في الغرب	٣٠
الخصوصية الثقافية في الفكر الإسلامي المعاصر	٣٢
الأخلاق الإسلاميّة والقيم الإنسانية	٣٨
دروس من الروم (أوروبا)	٤٣
متى يحل التفاهم ويرحل التخاصم ؟	٤٧
دعوة معتدلي الغرب إلى الاعتدال	٥٢
هل التخويف من المسلمين جديد وعفوي ؟	٥٧
الاستشراق وأثره في الفكر والسياسة	٦٢
مسلم الخدمة !	٧٠
رأينا في العنف :	٧٤
١- ظاهرة العنف	٧٤
٢- عالجوا أسباب الإرهاب	٧٨

تقديم

يسعدنا أن نفتتح سلسلة الإصدارات التي يسعى المنتدى بعون الله لتقديمها إلى القراء الكرام ، وإلى عامة العاملين في الحقل الإسلامي في الغرب والعالم الإسلامي من جهة ، وإلى المهتمين بمسلمي الغرب من غير المسلمين من جهة أخرى . ويأتي هذا مساهمة متواضعة من المنتدى من أجل فهم متعمق لحقيقة الوجود الإسلامي في الغرب ، والذي أصبح حقيقة متجذرة في التاريخ الحديث لدائرة الحضارة الغربية ، وإحدى مكوناتها الاجتماعية والدينية والسياسة والاقتصادية . فالفهم الدقيق والمتجدد والمواكب للتطورات هو الذي يبصر بالواجبات الآنية والمستقبلية ، ويفتح آفاق عمل جديدة ، ويساهم في التقارب والتفاهم بين مختلف الأطراف .

إنّه لا يخفى على أحد : التطور السريع والمتلاحق لطبيعة الوجود الإسلامي في الغرب ، وما اكتنف ذلك من معضلات ، وما نتج عنه من مظاهر عدائية للإسلام ، إلى أن أصبح ذلك مفهوماً ومصطلحاً متداولاً ، أي (الإسلامفوبيا) ، وكذلك ما نتج عنه من مغالطات عن الإسلام يحمل مسؤولية بعضها المسلمون أنفسهم ، وغيرهم من أفراد المجتمع الغربي يحمل مسؤولية الشق الأكبر منها. وأصبح من الواجب التواصل بين مكونات المجتمع لتوضيح ما يكتنف العلاقة بين مكوناته من شكوك ولإزالة الالتباس . ويتطلع المنتدى للقيام بدور فعال في هذا المجال ، رغبة في تجلية الحقائق وتبديد ما يخفيها من غيوم ، حيث يندرج ذلك في صلب أهدافه ودواعي نشأته .

وفي هذا الكتيب يضعنا الدكتور صلاح الدين النكدلي في هذا السياق ؛ من خلال تجربته الطويلة، وجهده الدعوي والفكري والعلمي في الساحة الغربية ، ومن خلال ممارسته الدعوة إلى الله ، وتربية الأجيال على الإسلام : عقيدةً وفكراً وسلوكاً ، ونظامَ حياة ينشئ المواطن الصالح الخدوم لوطنه ومجتمعه .

وهذا الكتاب وما يتبعه – بإذن الله تعالى – عبارة عن وسيلة من الوسائل المتنوعة التي يعتمدها المنتدى لتحقيق أهدافه العامة التي نحملها في الآتي :

١. تبصير المسلمين بحقيقة الإسلام الإنساني العالمي الوسطي المعتدل ، البعيد عن التقوقع والتطرف والتعصب والعنف

٢. توعية المسلمين بحقائق العالم والعصر وتطوراته المختلفة ، وارتباط العالم ببعضه البعض ، ووحدة المصير الإنساني في هذه الدنيا

٣. تأهيل المسلمين للاندماج في مجتمعاتهم وأوطانهم ، والإسهام البصير المفيد في حوار الحضارات المؤدي إلى مزيد من التعارف والتآلف والتعاون على درء الصراعات الحضارية وغيرها ، وتحقيق التفاهم والتكامل والتسامح والخير المشترك لجميع البشر

٤. تربية الأجيال الإسلامية الناشئة على المبادئ والقيم الدينية والإنسانية الداعية إلى الانفتاح والتسامح والمحبة والأخوة الإنسانية والتعارف بين الناس ، والتعاون على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان ، بين البشر جميعاً على اختلاف الأديان والأقوام والأوطان

والله من وراء القصد

المنتدى الإسلامي الأوروبي

آخر في : شعبان ١٤٣٠هـ – آب / أغسطس ٢٠٠٩م

عزيزي القاريء

يشكل المسلمون في الغرب أقلية دينية تهفو إلى المحافظة على هويتها الثقافية ، وبخاصة في البلاد التي عرفت الوجود الإسلاميّ حديثاً ، والذي تكوَّن معظمه في أعقاب موجات الهجرة التي حدثت بعد الانتهاء من الحرب العالمية الثانية .

وهذا الوجود النامي للمسلمين في الغرب يفرض عليهم ، وعلى بقية مكونات المجتمعات الغربية، واجبات ، ويمنح الجميع حقوقاً ؛ سواء كانوا أقلية دينية أو أكثرية ، وعلى الجميع أن يلتزموا بالعقد الاجتماعي ؛ إذا أرادوا حياة كريمة تقوم على التعارف والمودة .

أما واجبات المسلمين فتتلخص في :

- توليد رؤية لطبيعة علاقتهم بالمجتمع الذي يشكلون فيه أقلية ، بحيث ينهضون بواجباتهم ، كمواطنين أو مقيمين ، لكي يحصلوا على حقوقهم .
- العمل على إقامة المؤسسات الثقافية والتربوية والإعلامية وغيرها ، التي تحفظ لهم هويتهم الدينية ، وتنمي عندهم الرغبة الجادة في « التعارف مع غير المسلمين » و « التعاون على الخير » .
- الانخراط في مؤسسات المجتمع : السياسية ، والإنسانية ، والاجتماعية .. إلخ ؛ فعن طريق ممارسة دور إيجابي تُبنى الثقة ويتعمق التعارف .

وأما واجبات الأكثرية في الغرب نحو الأقلية المسلمة فتتلخص من وجهة نظرنا في الآتي :

- التعامل مع المسلمين وفق نصوص وروح المواد الدستورية والقوانين التي تقرر التعددية الدينية، ومراقبة الإدارات في تصرفاتها حيال المسلمين .
- مساعدة المسلمين –وغالبيتهم من المهاجرين وأبنائهم– على الاستقرار المادي ، وعلى تربية ناشئتهم بحيث يرتفع مستوى تحصيلهم العلمي ، واستيعاب الطاقات الفاعلة في العمل ، ودمجهم في بنية المجتمع .
- الابتعاد عن تشويه صورة الإسلام والمسلمين ، والكف عن نشر ثقافة الكراهية ، والسعي إلى توفير أجواء الصداقة والمودة والتعاون على الخير .

إنّ المسلمين في الغرب هم الجزء الضعيف الذي يحتاج إلى رعاية وعناية لكي يعطي نتائج مريحة، فإذا قصرت مؤسسات المجتمع في حماية هؤلاء ومساعدتهم ، فإن العلاقة داخل النسيج الاجتماعي ستكون متوترة ، فكيف إذا شعر المسلمون أنهم محاصرون ومنبوذون من قبل الأكثرية ؟! .

وهذا الكتاب

- يحمل في طياته رؤى يحتاج إليها مسلمو الغرب عند تعاملهم مع الواقع بثوابته ومتغيراته .

- ويؤكد على أن التمسك بالهوية الإسلاميّة حق لا يجوز أن يفرط فيه المسلمون ، ولا ينبغي أن تمارس الأغلبية عليهم ضغوطاً لتصرفهم عن الالتزام بمقتضيات دينهم .

- ويكشف أن الموقف السلبي من الإسلام والمسلمين قد صنعته قوى غربية تملك قدرات على التأثير .. ولكنها مغرضة أو جاهلة ، ويجب الحذر من هؤلاء .

وهذا الكتاب

يتضمن رؤى أخرى نأمل أن يستفيد منها أصحاب قرار وأهل فكر غربيون ، لأن ما فيه من آراء نقدية إنما يشكل أمثلة محدودة لشكاوى المسلمين من الحيف المسلط عليهم .. وهذه الآراء تنادي: لقد آن الأوان لإعادة النظر في طريقة التعاطي مع الظاهرة الإسلاميّة ؛ بعيداً عن الأحكام المسبقة ، أو المعرفة الجزئية المبتورة ، أو تعميم تصرفات الأفراد على الأمة المسلمة أو مسلمي الغرب .

نسأل الله عزَّ وجلَّ أن ينفع بهذا الكتاب من يطلع عليه ، ويسرنا أن نتلقى من القراء الأعزاء نصائح تسدد الرأي وتقوِّم المسير .. والله ولي التوفيق .

المسلمون في غرب أوروبا

نظرة عامة :

ينتمي المسلمون الموجودون في غرب القارة الأوروبية إلى ثلاث فئات ، وحديثنا عنهم يعبر عن رؤيتنا للوجود الإسلامي الجديد –نسبياً– في الغرب :

أولاً : فئة الوافدين : وأسباب وجود هؤلاء في أوروبا محصورة في :

❋ العمل ❋ الدراسة

❋ التمثيل الدبلوماسي ❋ اللجوء السياسي

❋ السياحة والعلاج والتجارة

ويتميز الوافدون بأمور ، منها :

- احتفاظهم بآثار النشأة الأولى في بلاد الأصل .
- ارتباطهم بالأهل والمواطن التي قدموا منها وبإفرازاتها السياسية والاجتماعية .
- اتصالهم ثقافياً بمصادر المعرفة الموجودة في العالم الإسلامي « قراءة ، واتصالات مباشرة .. ».
- انتماء جزء من المجموعة الفاعلة منهم إلى تيار التجديد الديني والجماعات الإصلاحية التي نشأت في البلاد الإسلامية ، وذلك قبل قدومهم إلى الغرب .
- الرغبة في تكوين مجتمعات مغلقة يجدون فيها أنفسهم دون ضغوط .

ثانياً : فئة الناشئين : وهم أبناء الوافدين ، ويحملون بصمات من جيل الآباء ، ويختلفون عنهم في أمور أساسية نشأت عن طبيعة البلاد والظروف التي ترعرعوا فيها . فهؤلاء على سبيل المثال :

- يحبون بلاد آبائهم .. ولكنهم لا يشعرون شعوراً عميقاً أنها مواطنهم .
- يرون أنهم أبناء أوروبا التي ولدوا وترعرعوا فيها .
- يعيشون شبه انقطاع عن مصادر ثقافة الآباء .. فاللغات الأوروبية هي مصدر المعرفة الرئيسي .. وهي فقيرة بالمعلومات الإسلامية .

○ لا يحسون بعمق بإشكاليات العالم الإسلامي التي يتفاعل معها الوافدون من الأعماق .. مثل :

- فقد الحرية والخوف من نظام الحكم في بلاد الآباء .
- الصراع بين الأصيل والدخيل : « الإسلام » و« العلمانية » .
- التخلف ودور المؤسسات الغربية السياسية والاقتصادية في تثبيته .

ونتيجة لظروف الثنائية الثقافية التي يعيشها معظم جيل الناشئين .. فإنهم يتميزون عن الوافدين بأمور .. تجتمع في :

١- محاولة المزج بين ما أخذوه من بيئتهم الخاصة ومن المجتمع .. ويظهر هذا في طرائق التفكير ، وفي العادات وأخلاقيات الاجتماع بصورة أساسية .

٢- الشعور بـ « المواطنة » في البيئة الغربية .

٣- ازدياد عدد الساعين إلى دور مهم في الحياة العامة .. والخروج من المجتمع المغلق .

ثالثاً : فئة أبناء أوروبا : ويتميز هؤلاء بأمور .. منها :

○ الشعور العميق بالمواطنة .. فلا يحسون بالغربة التي يشعر بها الوافدون .

○ محاولة التوفيق بين النظام الإسلامي والنظام المدني .. ويظهر هذا بوضوح في فئة من المثقفين، الذين يميلون إلى طرح فهم للشريعة يتناسب مع ظروف أوروبا .

○ ضعف الصلة المباشرة بنصوص الإسلام بسبب عامل اللغة ، وغياب فئة من المختصين الذين ينقلون المعاني بأصالة وبكثرة تفي بالحاجات .

○ صلة هؤلاء بفئة الناشئين أوثق من صلتهم بجيل الوافدين .. نظراً إلى ظروف النشأة وعامل اللغة .

محاور لفهم المسلمين في أوروبا :

أولاً : الحالة الاجتماعية :

○ يعيش معظم الذين ينتمون إلى الإسلام وفق قيم أوروبا وأخلاقياتها وعاداتها السائدة .

❍ أقدم عدد من أبناء المسلمين على الزواج من الأوروبيات .. وكان هذا في أول الأمر .. ووجد له مبرراً في إباحة الزواج من الكتابيات .. ثم برزت ظاهرة زواج بنات المسلمين بالأوروبيين غير المسلمين .

والزواج المختلط أفرز مشكلات معقدة أهمها « مستقبل الأبناء » .

❍ لم يحل الذوبان السلوكي مشكلة الانتماء .. فما يزال المجتمع الغربي –بشكل عام– ينظر إلى المسلمين على أنهم غرباء .. وإن كان معظمهم لا يختلفون عن الأوروبيين إلا بالأسماء! .

❍ عملت المجموعات التي تشعر بالخصوصية الثقافية على تكوين مجتمعات خاصة .. وهم يشعرون من خلالها بانتمائهم الثقافي والديني .

ثانياً : الحالة الثقافية :

❍ في البداية : شكل العمال العدد الأكبر من الجالية المسلمة التي أخذت تستقر .

❍ وبمرور الزمن : نشأت أجيال تعلمت ونمت ثقافياً ، وصارت معرفتها باللغات الأوروبية أفضل من معرفة آبائهم بكثير ، وتطلع عدد كبير منهم إلى دور مقبول في المجتمع الأوروبي .

❍ قرر عدد من الدارسين – لأسباب متعددة – الإقامة الدائمة .. وهؤلاء أخذوا دورهم في المجتمع « أطباء ، مهندسون ، فنيون .. » .

❍ لم ينعزل عامة المسلمين من أبناء أوروبا عن المجتمع .. وأصحاب المواهب الثقافية منهم ظلوا يمارسون نشاطهم في الحياة العامة .

هذه الظاهرة « الثقافية » في حاجة إلى الاهتمام بها في وقت مبكر .. رصداً وتوجيهاً لما فيه صالح البشر أجمعين .

ثالثاً : الحالة الاقتصادية :

❍ ينتمي معظم المسلمين في أوروبا إلى فئة ذوي الدخل المحدود .

❍ يلاحظ ارتفاع نسبة عدد الذين تجاوزوا حد « الدخل المحدود » يوماً بعد يوم .. بسبب استقرار كفاءات علمية وفنية وتجارية وافدة .. واقتحام مجال الحياة العامة من طرف الناشئة .

رابعاً : المؤسسات الدينية :

- ظهرت نتيجة الشعور بالحاجة إليها .. وكان الهدف من تكوينها محصوراً بـ :

– إقامة الشعائر .

– ونشر الثقافة الإسلامية بين الوافدين .

- ونظراً لاستقرار الوافدين .. فإن الأجيال الجديدة دفعت جيل الآباء إلى التفكير بهم .. وهنا أخذ هدف « نقل الثقافة إلى الناشئة » يكبر يوماً بعد آخر .. واستخدم المسلمون عدة وسائل تساعدهم – ضمن إمكاناتهم المحدودة – في تثبيت هويتهم الثقافية لدى الأبناء .. من ذلك :

– التعليم الإضافي في الجمعيات والمساجد والمراكز .

– نشاطات متعددة يتم معظمها في عطلة نهاية الأسبوع .

– الاهتمام بفتح مدارس خاصة بالجالية .

- ونتيجة احتكاك المسلمين مع الأوروبيين .. برز هدف « التعريف بالإسلام » .

- اهتمت بعض الأنظمة في العالم الإسلامي بالمؤسسة الدينية في أوروبا .. بدوافع متعددة .. وسعت إلى إقامة مؤسسات أو دعم بعض الموجود محلياً .

خامساً : المؤسسات الإعلامية والتعليمية :

- معظم المؤسسات الإعلامية مهاجرة .. وتهتم بقضايا مواطن المسلمين الوافدين .. بصرف النظر عمن يقف وراءها من تيارات فكرية أو أنظمة حكم .

- بدأت جهود متواضعة تضغط باتجاه الاهتمام بالمسلمين وبيئتهم الجديدة ، ولكنها تتعاظم بمرور الزمن .

- في عدد من دول أوروبا بدأت ظاهرة المدارس الخاصة بالظهور .

- هناك محاولات لإقامة معاهد وكليات تهتم بتأمين معرفة تحافظ على هوية المسلمين ، وبخاصة توفير أئمة للمساجد وأساتذة لتدريس التربية الإسلامية في المدارس ، ورغبت حكومات أوروبية – بدوافع متعددة – في ولوج ساحة تكوين الأئمة والمعلمين ، وما زالت خطواتها متعثرة .

نتائج وجود المسلمين في أوروبا :

❍ بدأت مؤسسات الغرب وتياراته الثقافية والسياسية والدينية تحسّ بأن مجتمعاً جديداً بدأ ينمو ويتغلغل في نسيج المجتمع الأوروبي .. وأن هذا المجتمع ينتمي إلى ثقافة لها خصوصياتها وتاريخ طويل مع الثقافة الأوروبية .

❍ تزامن وجود المسلمين في أوروبا مع ظهور ونمو حركات إسلامية في بلاد المسلمين .. تنادي بالتحرر الثقافي والسياسي والاقتصادي .. وترفض هيمنة قيم الغرب في العالم الإسلاميّ .

فكان لتيار التجديد الإسلامي تأثيره المباشر ، وغير المباشر ، على المسلمين في أوروبا .

❍ وجدت قوى عالمية أن التيار الإسلامي يشكل – في بلاد المسلمين – عقبة في سبيل الهيمنة في صورها القديمة .. وأنه سيقاوم بعناد الصور الجديدة للسيطرة والاستغلال .. فأعلنت مراكز القرار والمصالح الحرب على هذا التيار .. والتي تجلت في :

١– تنظيم حملة عالمية هدفها تشويه صورة دعاة التجديد الإسلامي .

٢– دعم أنظمة الحكم الاستبدادية في بلاد المسلمين .

❍ وتضرر المسلمون في أوروبا من حملة تشويه الإسلام والمسلمين التي أفرزت مواقف نفسية متشنجة من الوجود الإسلاميّ في أوروبا .

❍ وكان من آثار حملة التشويه ، بالإضافة إلى عوامل أخرى تاريخية ومحلية ، أن ارتفعت أصوات في أوروبا تدعو إلى التخلص من الظاهرة الإسلامية التي بدأت تستوطن في الغرب .

واتفق أصحاب القرار على ذلك .. ولكنهم اختلفوا في الوسائل :

– فهناك فريق يدعو إلى ترحيل المسلمين .. لأن بقاءهم يسبب مشكلة قومية وأزمة ثقافية .

– بينما يدعو الفريق الآخر إلى « تذويب » الأجيال الجديدة .. تحت

عنوان الاندماج .. وسعى إلى « تخويف » جيل الوافدين .. الراحل .. بالمراقبة الظاهرة والخفية وبالضغط عليه .

– وهناك فريق يؤمن بالتعددية الثقافية .. ولكنه يرفض فكرة شمول الإسلام لكافة مناحي الحياة .. ويرى هؤلاء أن على المسلمين أن يتخلوا عن كل ما يتعارض مع علمنة الدولة والحياة من وجهة نظرهم .

○ وهناك من يرى أن مباديء الحرية والعدل والمساواة تستوعب الوجود الإسلاميّ النامي ، ولا مانع من تطوير القوانين والإجراءات الإدارية التي تستجيب لخصوصية المسلمين ولا تضر بغيرهم ، لأن الضغط على المسلمين يُشعرهم بالعدوان عليهم والاستخفاف بهم ، ونتائج هذا الشعور مخيفة عند المسلمين ولدى مانعيهم من ممارسة ما يشعرهم بالانتماء الديني العزيز على قلوبهم .

○ وتفاعل المسلمون في أوروبا مع تصرفات القوى العالمية ، التي فاحت منها روائح العداء والكراهية والاستعلاء والغطرسة .. والتي مورست في عدد من بلاد المسلمين وفي الغرب .. فكل فعل له رد فعل يحدد ماهيته الفاعل الأول ، وتأزمت العلاقة بين المسلمين ومحيطهم بلا مبرر .

نظرة مستقبلية :

○ إن حالة الأخذ والرد التي برزت نتيجة الاحتكاك بين الثقافتين : الإسلامية والغربية .. أمر طبيعي :

فمن حق الغرب – وهو مجتمع عاش قروناً أحادي الثقافة – أن يفكر في انغراس المسلمين في تكوينه الاجتماعي ، وفي كيفية التعامل مع إفرازات هذا الكائن الثقافي الجديد .

ومن حق المسلمين أن يفكروا في كيفية التعامل مع الظروف المحيطة بهم ، لكي يحددوا الشروط التي تحفظ عليهم أصل انتمائهم الثقافي ومقتضياته في حياتهم ، من غير عدوان على الآخرين .

○ والطريق إلى تحديد العلاقة العضوية بين مكونات المجتمع في أوروبا .. هو « الحوار » بين المسلمين الذين هم جزء أصيل من سكان البلاد .. وبين أصحاب القرار في المجتمعات الأوروبية .. بقصد استنباط صورة اجتماعية مناسبة يمارس المسلمون من خلالها حريتهم الدينية ، وتجعلهم يشعرون بـ « المواطنة » ، وينهضون بهمة ونشاط ومحبة إلى واجباتهم التي تتفق مع هويتهم الإسلامية الرحيمة .

○ وينبغي القول بأن المشكلة لن تحلّ كلياً عن طريق التقنين ونصوص الدستور .. فلا بدّ من جهد كبير على المستوى الشعبي ؛ يرسخ الثقة ويقيم علاقات التعارف والاحترام بين المسلمين وغير المسلمين الذين يبحرون في سفينة واحدة .

ومن جانب المسلمين .. فإن هذا الدور منوط بالأجيال الجديدة .. لأنها الأقدر : لغة ومعرفة بالغرب وتياراته وطرائق تفكيره .. على القيام بهذه المهمة .. وهذا يفرض على جيل الآباء الوافدين الاهتمام بالأجيال الناشئة .. وإتاحة فرص حقيقية تؤهلهم لهذه الغاية النبيلة .

○ وهنا أود لفت النظر إلى الآتي :

– لقد حصلت تغييرات أساسية في طبيعة تكوين المسلمين في أوروبا ثقافياً واجتماعياً واقتصاديا .. ومع ذلك فإن مؤسساتهم لم تتطور بحيث تساعد أجيال المسلمين على امتلاك وسائل تتناسب مع أوضاعهم الجديدة .. وتحافظ عليهم في إطار المجموعة المسلمة . وبحيث يكون للأبناء دور بارز في المؤسسات يتناسب مع حاجاتهم وقدراتهم .. ذكوراً وإناثاً ، وعدم تطور المؤسسات الإسلاميّة في جوانب مهمة ، لا يرجع إلى عدم رغبة القائمين عليها بذلك .. وإنما يرجع إلى القدرة الفعلية على التطوير .

– ومن الخطأ أن ننتظر من المؤسسات الإسلامية أن تلبي كافة الحاجات الناشئة عن استقرار المسلمين ، وعلى الأجيال الناشئة أن تسعى لإقامة المؤسسات التي تتطلع إلى وجودها ، وتحقق من خلالها رؤيتها الدينية والثقافية .

○ إن المستقبل الباسم مرهون بأمرين :

١– وجود أصحاب قرار في المجتمع الأوروبي ؛ يتمتعون بالإنصاف والقدرة على صياغة صور كريمة تنهض بكافة الفئات في المجتمع ، وهذا الدور الأوروبي ما يزال مفقوداً إلى حدٍّ كبير .

٢– ظهور قيادات مسلمة قادرة على الاجتهاد والمشاركة في صياغة صورة مناسبة للوجود الإسلامي .. يدعمها جيل يدرك دوره في المجتمع الذي أصبح جزءاً منه .

وأخيراً ..

فإن المسلمين مدعوون إلى القيام بواجباتهم .. تجاه أنفسهم وتجاه المجتمع الذي هم جزءٌ منه.. لكي يحصلوا على حقوقهم . ولن يتمكن المسلمون من المشاركة الإيجابية في المجتمع الأوروبي .. إلا إذا فهموه ، وشعروا بالمواطنة فيه ، وتحسسوا جوانب الخير والبناء فيه لدعمها ، ووضعوا أيديهم على عوامل الشرّ والهدم لتطويقها ومعالجتها .. بأسلوب يتناسب ويتناغم مع شروط المعالجة في المجتمع الأوروبي .. وهو مجتمع يتيح فرصاً كثيرة للأخيار وللأشرار .. وعلى المسلمين أن يكونوا فرسان خير .. قادرين – من خلال النـــزول إلى الميدان العملي – على صيانة الإنسان ومنجزاته الطيبة .. بدلاً من شتم الفساد والمفسدين ، وبعيداً عن تكوين مواقف متشنجة تنأى بالصالحين عن القيام بواجب الإصلاح .

دعوة إلى فهم الغرب

تعامل المسلمون مع « الغرب » في التاريخ الحديث من خلال ظاهرة « الاستعمار » وما أفرزته من تغييرات في البنية الثقافية والنمط الحياتي في بلاد المسلمين ، وتعاملوا معه أيضاً عبر « المواجهة الثقافية » التي امتدت بعد خروجه العسكري من معظم الأقطار الإسلامية ، والتي يصر الغرب من خلالها على فرض نظرته إلى الإنسان والكون والحياة في جميع أرجاء المعمورة .

وفي منعطف تاريخي حاد –وخاصة في أعقاب الحرب الكونية الثانية– فتح عدد من دول أوروبا الغربية الأبواب لاستقدام عمال مسلمين ، ويسروا سبل الدراسة الجامعية للراغبين في التحصيل العلمي ، وشمل ذلك التخصص في فروع المعرفة . ونشأ عن وجود المسلمين في داخل نسيج المجتمع الغربي إشكالات تتطلب حلولاً .. وهذه لا يمكن الوصول إليها إلا إذا فهم كل طرف الطرف الآخر . وسأقوم بتسليط الضوء على ثلاثة محاور وبتركيز كبير ، آملاً أن تساعدنا في فهم الغرب ، وعسى أن تفيد في حوار حضاري كريم .

أولاً : الحالة الفكرية :

▪ يمثل المجتمع الغربي المعاصر امتداداً للكيان السياسي والاجتماعي والثقافي ؛ الذي تكوَّن في أعقاب التمرد على سلطان الكنيسة الكاثوليكية والإقطاع في القارة الأوروبية ، وظهور النهضة العلمية . وكان للثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م دور بارز في بلورة أفكار المجتمع الجديد .

▪ وبما أنه يستحيل – في هذه العجالة – الكلام عن كل شيء في الغرب .. فإنني سأشير إلى أهم تياراته الفكرية وآثارها في المجتمع والسياسية .

▪ أسفر الصراع بين الإقطاع والكنيسة من جهة ، وبين دعاة النهضة والحرية من جهة ثانية ، عن ظهور أفكار وفلسفات زعزعت ما كان متعارفاً عليه وثابتاً .. وكان أبرزها وأقواها :

① المذهب العلماني :

– يقوم المذهب العلماني على مبدأ « فصل الدين عن الدولة » . وشعاره « دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » .

– وكانت النتيجة : ثورة في التشريع ، وفي العلاقات الاجتماعية ، وفي الأخلاق ، وفي الحركة الاقتصادية .

② المذهب الإلحادي :

- يقوم المذهب الإلحادي على مبدأ « حتمية الصراع بين العلم والدين » . وشعاره : « الدين مخدر .. الدين خرافة » .

- وكانت النتيجة : العمل على استئصال شأفة الدين ، والقضاء على أفكاره ، وتشريعاته ، ورجاله ، ومؤسساته .

⊙ النتيجة التي تهمنا معشر المسلمين هي :

- من الإشارات السابقة ظهر بوضوح أن الأفكار السائدة في الغرب تقوم على أساس **رفض دور الدين في السياسة والاقتصاد والتشريع وتوجيه نشاط الإنسان خارج حدود الضمير والمؤسسة الدينية** .. وتختلف تيارات الغرب الفكرية في حجم الدور الذي يسمح به للدين في الواقع.

- وهذا الموقف المبدئي من الدين ليس خاصاً بالإسلام .. بل يشمل كل دين .. ويتوجه بداية إلى « النصرانية » التي كانت طرفاً في الصراع ، ولا يخفى أن مؤسسات المجتمع الغربي تشرع أموراً ترفضها الكنيسة ، وهذا ظاهر في مجال الأسرة ، كإباحة الإجهاض ، والسماح بالطلاق والزواج المثلي .

وهذه النتيجة يجب استحضارها عندما نتحاور مع أصحاب القرار والفكر الغربيين .. فالفكر الغربي المعاصر ينكر الطرح الشمولي لمعنى الدين .. وهو لا يرفض تمسك المسلمين بالدين كما هو مقرر في الفكر الغربي .. وإنما ينكر تدخل الدين في شؤون الحياة .. وخاصة إذا أصبح فريق من المسلمين جزءاً من الكيان الغربي ، لأنهم في هذه الحالة يطرحون « الشريعة الإسلامية » كبديل للأنظمة المعمول بها ، وكأساس للتشريع .

ثانياً : الذاكرة التاريخية :

▪ يشكل تاريخ الغرب مع الإسلام جزءاً أساسياً من الشخصية الغربية المعاصرة .. وأستعين بالمستشرق الكندي المعاصر « ولفرد كانتول سـميث » من أجل توضيح هذه الحقيقة .. ففي كتابه « الإسلام في التاريخ الحديث » يقول :

[إلى أن قام كارل ماركس وقامت الشيوعية ، كان النبي « ﷺ » – ويعني بذلك الإسلام – هو التحدي الحقيقي الوحيد للحضارة الغربية الذي واجهته في تاريخها كله ، وإنه لمن المهم أن نتذكر كم كان هذا التحدي حقيقياً ، وكم كان يبدو في وقت من الأوقات تهديداً خطيراً حقا] .

ويقول :

[لقد كان الهجوم مباشراً في كلا الميدانين : الحربي والعقيدي ، وكان قوياً جداً .. فقد فقدت المسيحية دفعة واحدة أجمل مقاطعات الامبراطورية الرومانية ، لتتسلمها منها القوة الجديدة .. وكانت في خطر من ضياع الامبراطورية بكاملها] .

ويقول :

[وعلى الرغم من أن القسطنطينية لم تقع – تماماً – في يد الجيوش العربية كما وقعت مصر وسورية – يقصد بلاد الشام – فقد استمر الضغط عليها فترة طويلة . وفي موجة التوسع الثانية وقعت القسطنطينية بالفعل سنة ١٤٥٣م ، وفي قلب أوروبا المفزعة ذاتها أحاط الحصار بفيينا سنة ١٥٢٩م ، بينما ظل الزحف ، الذي بدأ عنيداً لا يلين ، مستمراً في طريقه .. وحدث ذلك مرة أخرى في وقت قريب لم يتطاول عليه العهد في سنة ١٦٨٣م] .

ويقول :

[كان الهجوم الإسلامي موجهاً إلى عالم النظريات كما هو

موجه إلى عالم الواقع ، وقد عملت العقيدة الجديدة بإصرار على إنكار المبدأ الرئيسي للعقيدة المسيحية ، التي كانت بالنسبة لأوروبا العقيدة السامية التي أخذت – في بطء – تبني حولها حضارتها . وكان التهديد الإسلامي موجهاً بقوة وعنف ، وكان ناجحاً مكتسحاً نصف العالم المسيحي تقريباً ، والإسلام هو القوة الإيجابية الوحيدة التي انتزعت من المسيحيين أناساً دخلوا في الدين الجديد وآمنوا به بعشرات الملايين] .

- ويقرر محمد أسد في كتابه « الإسلام على مفترق الطرق » حقيقة من حقائق المجتمع الغربي ينبغي استحضارها دائماً ، فيقول :

[وبسقوط القسطنطينية فتح باب أوروبا على مصراعيه للسيل الإسلامي ، وفي القرون التي تلت، والتي امتلأت بالحروب ، لم تبق عداوة أوروبا للإسلام ذات أهمية ثقافية فحسب ، بل ذات أهمية سياسية أيضاً . وهذا زاد في اشتداد تلك العداوة .. ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبي كلما ذكرت كلمة .. مسلم ..] .

⊙ النتيجة التي تهمنا نحن المسلمين هي :

▪ إن الغرب .. بمؤسساته السياسية والثقافية والدينية .. يدرك طبيعة الإسلام ، ويتخذ منه موقفاً معادياً .. لاعتقاده أن ما حدث بالأمس يمكن أن يتكرر حاضراً أو مستقبلاً .

▪ وهذا الذي يفسر ما يصدر عن متنفذين في مجال الفكر والسياسة وغير ذلك من مواقف متشنجة تجاه الفكر الإسلامي والحركة الإسلامية التجديدية المعاصرة .. بينما لا تُرى هذه المواقف عندما يتحدثون عن دين آخر أو ثقافة أخرى غير الإسلام .

▪ وهذا لا يعني أن ذاكرتهم التاريخية على صواب .. ولكن ينبغي إدراك تأثيرات تفسيرهم للتاريخ في نظرتهم إلى الأمور .. ووضعها في نصابها المناسب عند التعامل مع قوى المجتمع الغربي .

ثالثاً : المصالح الحيوية :

▪ باختراع الغرب للآلة ودخوله معترك الصناعة بدأ تشكيل جديد للمجتمع الغربي ، وهذا التشكيل فرض ألواناً من العلاقات داخل المجتمع وخارجه .

▪ فدول أوروبا الصناعية تحتاج إلى المواد الأولية لمعاملها .. وتحتاج في الوقت ذاته إلى أسواق تشتري ما تنتجه مصانعها .

▪ وتسابقت دول أوروبية إلى مواطن المواد الأولية ، وأنشأت فيها أوضاعاً تضمن بقاء تلك المواطن – ولو إلى حين – مصدراً لما تحتاجه من مواد .. وسوقاً لما تنتجه مصانعها العملاقة .

▪ وبرزت ظاهرة التنافس بين القوى الأوروبية السياسية والاقتصادية في ثوب جديد .. وكانت أوروبا ومستعمراتها مسرحاً للمواجهة العلنية والخفية .. ثم دخلت قوى أخرى لعبة « تنافس القوى» كأمريكا .. وهذه المنافسة تزداد قوة وشراسة يوماً بعد يوم .

▪ في ظل هذه الأوضاع العالمية أقامت دول الغرب – وبخاصة أمريكا وأوروبا الغربية – مجتمعات تنعم بقسط كبير من الرفاهية .. وتمكن دهاقنة السياسة ورأس المال في الغرب من تكوين موقف مصلحي في ضمير غالبية أفراد المجتمع الغربي .. وهذا الموقف يناصب العداء لكل من يعمل على تغيير صيغة العلاقات بين الغرب المنتج والدول الأخرى المستهلكة .. ويأتي في مقدمتها العالم العربي ثم بقية دول العالم الإسلامي !!

⦿ النتيجة التي تهمنا نحن المسلمين هي :

▪ إن ترتيب الغرب لمصادر المواد الخام .. وللأسواق التي تشتري بضائعه .. على النحو الذي يريده .. جعل أبناء الغرب واقعين في أسر « المصالح الحيوية » .

▪ وانطلاقاً من هذه الظروف التي أقامها الغرب وما زال يفرضها .. يقاوم ساسته وأصحاب المصالح .. بمكر ودهاء .. كل فكرة تحرر الشعوب المستضعفة من قيود السير في فلك القوى الغربية..

مسلمو الغرب وحق التدين

يطرح نمو عدد المسلمين في المجتمعات الغربية مسألة الاندماج الاجتماعي والانتماء السياسي على بساط البحث ، فمراكز القرار وبعض مؤسسات الدراسات الاجتماعية ؛ تشكك في إمكانية دمج المسلمين في نسيج المجتمع ، وترتاب في ولائهم السياسي ، وتتهمهم بتكوين مجتمعات مغلقة ، وتنكر عليهم المطالبة بمعاملة اجتماعية وتربوية وقانونية تراعي خصوصيتهم الدينية . وترتفع أصوات داعية إلى انتهاج سياسة تدفع المسلمين إلى الأخذ بقواعد سلوك وآداب وعادات الغالبية من السكان ، والتخلي عن الشعور بالخصوصية ، وينادي آخرون بوجوب الحد من انتشار الأفكار والمظاهر والمؤسسات التي تضخ في المسلمين فكرة التميز في السلوك والعادات . أما الداعون إلى طرد المسلمين القادمين من وراء الحدود فإن عددهم ما يزال محدوداً على الرغم من ضجيج أصواتهم .

ويقابل هذه النظرة ما يراه أصحاب الرأي من المسلمين ، وبخاصة في المؤسسات الإسلامية ، فهم يرون أن ظاهرة المجتمعات المغلقة التي رافقت قدوم المسلمين كانت طبيعية ، وهي آخذة بالأفول نظراً لاستقرار جيل الآباء وظهور وتزايد عدد الأجيال الناشئة في الغرب ، بل إن معظم المؤسسات الدينية قد أعادت قراءتها للواقع وتبنت الانفتاح على الوسط المحيط . ويدعو أصحاب الرأي من المسلمين إلى الاندماج الاجتماعي في مجتمعات تعترف بالتعددية الدينية والمذهبية والثقافية ، وتعطي دساتيرها الحق لكل إنسان في ممارسة مقتضيات دينه وثقافته بما لا يتعارض مع القانون العام ، الذي يجب أن يُرجع في تفسيره وتنـــزيله على الواقع إلى السلطة القضائية ، عند التنازع مع السلطة التنفيذية أو الإدارات . ويؤكد أصحاب الرأي من المسلمين على أن القضاء في المجتمعات الغربية قد خطَّأ الجهات التنفيذية في غالبية المسائل التي رُفعت إليه ، وأعطى المسلمين الحق في ممارسة ما يرونه ديناً واجب الإتباع في حدود شؤونهم الشخصية .

ويرى المفكرون المسلمون في الغرب أن على مؤسسات المجتمع إدراك المتغيرات الاجتماعية ، والتفاعل معها وفق منظومة القواعد الدستورية الرامية إلى : إشاعة العدل ودرء المفاسد وجلب المصالح، فالوجود الإسلامي حقيقة ، وللمسلمين حاجات ينبغي التعاطي معها قانونياً واجتماعياً وفق أسس التعددية الدينية والثقافية المعتمدة ، وهي تكفل توازناً في العلاقات . ويحذرون من اللجوء إلى تغييرات دستورية وقانونية في ظل ظروف « أمنية » محلية أو دولية ، تحاصر حق الالتزام بمقتضيات الدين ، لأن هذا من شأنه أن يزرع الريبة والخوف في النفوس ، وفي ظل الريبة والخوف تنشأ آراء متشنجة ، وهذا ليس في مصلحة الجميع .

هذا الواقع يدفعنا إلى الحديث المركَّز عن عدد من القضايا المساعدة على فهم دور الدين في المجتمعات الغربية ، وعلى التعرُّف إلى إمكانية الإقرار بخصوصيات الجماعات الدينية والثقافية ، وسنتناول هذه المسائل من خلال طرح عدد من الأسئلة :

١- هل تمكنت المنظومة الغربية من إلغاء دور الدين في العلاقات الاجتماعية ، والاختيارات السياسية ، والتوجيه الأخلاقي ؟

من المعلوم أن الدولة الأوروبية (الغربية) الحديثة قامت على الفكرة القومية ، التي دعت إلى الولاء للدولة من أجل توفير التجانس الاجتماعي ، ورفضت أن تكون التعددية الدينية والمذهبية والثقافية مصدراً للصدام والصراع ، وعملت على توفير مناخ الاندماج الاجتماعي والوحدة السياسية على أساس فصل الدين عن الدولة .

ولكن الواقع التاريخي والحالي يقيم الدليل على أن الدين أو المذهب قد حافظ على دور سياسي فعال ، بل ربما كان الدين أو المذهب وراء تكوين شخصية قومية مميزة ، ونرى هذا واضحاً في انفصال ايرلندا الجنوبية الكاثوليكية عن بريطانيا العظمى البروتستانتية ، وفي الصراع المحتدم بين البروتستانت والكاثوليك في ايرلندا الشمالية ، ونراه أيضاً في دول البلقان : الصرب الأرثوذكس ، والكراوت الكاثوليك ، والمسلمون ... وهناك أمثلة أخرى في الماضي والحاضر تقيم الحجة على دور الدين القوي في المواقف السياسية والكيانات القومية .

أما على المستوى الاجتماعي فما يزال الدين محترماً في مجال الأحوال الشخصية ، والتوجيه الأسري ، والنشاطات الإنسانية (مستشفيات ، دور عجزة ، الأيتام ..) ولا يقل دوره التربوي عن دوره الاجتماعي (مدارس ، معاهد ..) بل إن عامة الدول الغربية تنفق بسخاء على برامج التربية الدينية في المدارس الحكومية .

٢- هل اعترفت المنظومة الغربية بخصوصية المتدينين من المسلمين والنصارى واليهود ؟

ذكرنا أن السلطة القضائية الغربية اعترفت للمسلمين بحقهم في ممارسة تعاليم دينهم فيما لا يعود بالضرر على آخرين ، وفي حدود الدستور والقانون . وهذه خطوة إيجابية على طريق الحوار بين مؤسسات المجتمعات الغربية والمسلمين ، واعترفت دول أوروبية بالإسلام ديناً رسمياً في البلاد - بصرف النظر عن قدرة المسلمين على الاستفادة من هذا الاعتراف ، أو العقبات التي يضعها إداريون لتأخير أو إضعاف التطبيق - وهذا يعني أن هناك استعداداً من حيث المبدأ للتعامل مع الوجود الإسلامي ، ونرى أن هذا التعامل في حاجة إلى أن يتبلور في صور عملية ، وهذه لن ترى النور إلا

من خلال حوار يساهم فيه مفكرون مسلمون قادرون على صياغة الصور الممكنة ؛ في ظل النظام القائم والظروف الموضوعية ، ثم يتم تطوير الممارسة من خلال المتغيرات التي تحدث في المجتمع وقوانينه ، وما ترفضه مؤسسات المجتمع اليوم قد تقبله غداً ، والوصول إلى المراد يتطلب حكمة وتصميماً وصبراً جميلاً .

وللتدليل على ما ذكرنا آنفاً نشير إلى موقف المحكمة العليا الأمريكية الذي أعلنته بخصوص منح الجنسية لأناس يرفضون « القَسَمَ » على حمل السلاح للدفاع عن الدستور والقوانين ضد الأعداء الخارجيين والمحليين ، لأن ذلك يتعارض كلياً أو جزئياً مع عقيدتهم الدينية ، فقد أعلنت المحكمة عام ١٩٢٩م أن عقيدة هؤلاء تحجب عنهم الجنسية ، ولكن المحكمة العليا تخلت عن هذا الموقف عام ١٩٤٦م بسبب إصرار أصحاب العقائد على الالتزام بتعاليم دينهم أو مذهبهم . ثم كان الرأي الأخير يقضي بإلحاق الذين لا يرغبون في حمل السلاح بسبب عقيدتهم الدينية بالخدمة الحكومية مدة الخدمة العسكرية .

أما المتدينون النصارى فإن خصوصياتهم مصانة إلى حدٍ كبير ، لأن الدولة الغربية الحديثة قامت في مواطن غالبية سكانها من النصارى ، وكان لإبعاد الدين عن التشريع والحكم آثار سلبية وحوارات حادة في بداية الأمر ، وحتى بعد استقرار العلاقة بين الكنيسة والدولة ؛ فإننا نشاهد خلافات في عدد من القضايا الحياتية التي كان للكنيسة فيها رأي يعارض ما ذهبت إليه السلطة التشريعية في عدد من الأقطار الغربية ، نذكر على سبيل المثال : إباحة الطلاق ، والسماح بالإجهاض . فوضوح العلاقة واستقرارها لا يعني التطابق ولا يلغي الخلافات ، **وعلى الجميع أن يلتزموا بقواعد العقد الاجتماعي ، وآلية مناقشة الآراء وإقرارها** .

وبالنسبة لليهود فإنهم يتمتعون باحترام ممارساتهم الدينية ، وبخاصة في التعليم والأحوال الشخصية ، وفي قضايا تمس حياتهم اليومية كالسماح لهم بالذبح وفق شروطهم .

نخلص من الكلام السابق إلى أن مبادئ المنظومة الغربية تعترف بحق التدين ضمن مفهوم الغرب عن الدين ؛ فالغرب يرفض أن تكون أحكام الدين مصدر تشريع لحياة الناس كافة ، وقد تتفق السلطة التشريعية مع حكم الدين في أمور وقد تختلف معه ، وفي حال الاختلاف فإن على المتدينين والمؤسسات الدينية أن تلتزم بالقوانين الصادرة عن المؤسسة التشريعية ، ولهم الحق في الإيمان بفساد تلك التشريعات ، وبالسعي إلى تغييرها وفق الآليات المقررة في المجتمع ، ومن يخالفها فعليه أن يتحمل النتائج .

٣- هل تملك المؤسسات الإسلامية فهماً سليماً للمنظومة الغربية ؟ وهل هي مستعدة للتعامل معها وفق شروطها ؟

إن القائمين على المؤســـسات الإسلامية يعلمون أن الدولة في الغرب « علمانية » ويدركون أنه لا يحق لأحد مخالفة الدستور والقوانين المعمول بها في البلاد ، ولكنهم في أمس الحاجة إلى وعي بطريقة التعامل مع الواقع عند التنازع في فهم الدستور والقوانين ، أو عند وقوع ظلم عليهم من قِبَل الإدارات ، وهم في حاجة أيضاً إلى « مؤسسات مرجعية » تمثلهم لدى سلطات المجتمع (التشريعية ، والقضائية ، والتنفيذية) وتسهر على مصالحهم المشتركة ، وتنهض بوعيهم الجماعي ، وتساهم في صياغة الحلول للمشكلات ... إلخ .

وعلى المؤسسات الإسلامية أن تلتزم في أعمالها ونشاطاتها ومواقفها بأصلين :

الأول : **أن تبتعد عن الوقوع في مخالفة تعاليم الإسلام .**

الثاني : **أن تنأى عن التناقض مع الدستور والقوانين .**

فإذا تحركت المؤسسة الإسلامية في حدود طبيعتها ، وضمن ما تسمح به نصوص الدستور والقوانين ، فإنها تحمي نفسها من المضايقات ، وتقدم خدمات توسع دائرة الخير وتحاصر الشر في النفوس وفي المجتمع . أما إذا خرجت المؤسسات عن طبيعتها ، وتصرفت بجهل أو انفعال فإنها تحمل مسؤولية ما يصيبها من المضايقات والمحاصرة .

وبعد : فإن ما ذكرناه يقودنا إلى لفت الانتباه إلى المسائل الآتي ذكرها :

١- إن دساتير الغرب وقوانينه تنطوي على أسس تكفل حرية التدين ، ولكن ضمن تصور الغرب للدين .

٢- إن على مسلمي الغرب أن يمتلكوا فقهاً لدينهم وواقعهم يُمكِّنهم من استنباط صور عملية تحافظ على هويتهم ، وتنأى بهم عن الصدام مع المجتمع ، وتجعلهم قادرين على الحوار مع مؤسسات المجتمع الغربي ، بقصد تعديل القوانين التي تضغط على خصوصيتهم الدينية .

٣- ينبغي أن يكون مسلمو الغرب قادرين على حسن التعامل مع الأخطاء التي تصدر من غير المسلمين في حقهم، وعلى المطالبة بحقوقهم ورفع الظلم الواقع عليهم؛ سواء وقع الظلم بسوء فهم للدستور والقوانين، أو بسوء نية. وأن يسلكوا الطريق القانونية في تحصيل الحق ورفع المظالم .

٤- على المؤسسات التي يقيمها مسلمو الغرب أن تلتزم بطبيعتها وبالقوانين المنظمة لأعمالها ومواقفها .

٥- على المسلمين ومؤسساتهم اكتشاف التصرفات الحكيمة في الحالات العادية وفي الظروف الاستثنائية الانفعالية ، وأن يبتعدوا عن تعميم التصرفات السلبية عند اختلال التوازن الاجتماعي على الحالات العادية .

تطور الفكر السياسي للمسلمين في الغرب

ما المقصود بالفكر السياسي ؟

نقصد بالفكر السياسي : مجموعة المبادئ والمنطلقات والقوانين التي تنظم العلاقات داخل المجتمع ، وترتب روابطه مع المجتمعات والجماعات الأخرى .

المسلمون في الغرب ؟

▪ شكل المسلمون الوافدون القاعدة الأساسية للوجود الإسلامي في الغرب ، وقد تميز هؤلاء بمواصفات فكرية ، ونفسية ، وسلوكية .. نشير هنا إلى ما يتعلق بموضوعنا منها :

* **الموقف من الغرب** : كانت نظرة الوافدين إلى الغرب محكومة بـ « الظاهرة الاستعمارية » ونتائجها السياسية والاقتصادية والأخلاقية .. ونستطيع أن نميز ضمن هذه النظرة العامة ثلاثة مواقف:

١- **المتدينون** : ويرون أن المشكلة مع الغرب حضارية ، بسبب التناقض العقدي والفكري ، ثم تأتي المصالح فتتداخل مع الفكر والعقيدة .

٢- **المثقفون المتغربون** : يتفقون مع الغرب في الفكر العام وفي السلوك ويختلفون معه على المصالح .

٣- **العامة** : يشعرون بعنصرية الغرب وجشعه ، ولكنهم مستسلمون للغرب فكراً وسلوكاً ، فهم كالريشة في مهب الريح .

* **الوجود في الغرب** : غالبية الوافدين اعتبروا وجودهم في الغرب مؤقتاً ، ولذلك لم يشعروا بضرورة الارتباط بالمجتمع ومؤسساته ، وعبروا عن ذلك بالانكفاء على الذات أو تشكيل المجتمعات المغلقة كالجمعيات والمساجد .

وبمرور الزمن حدثت تحولات في بنية المسلمين ، فقد استقر معظم الوافدين ، وتضاعف عدد الجيل الثاني ، والجيل الثالث ، وارتفع عدد معتنقي الإسلام من أهل الغرب .

هذه التحولات حملت معها تغييرات فكرية ونفسية واجتماعية ، وسياسية ، وشعر المسلمون بضرورة التفاعل مع الوضع الجديد وضرورة إعادة النظر في أحوالهم وفق رؤية متجددة ، ومن ذلك :

* **علاقة الغرب بالمسلمين** : ونسجل هنا ملاحظات أساسية :

١- يتعامل الغرب مع العالم الإسلامي من خلال مؤسساته السياسية والاقتصادية وغيرها ، وهذا

يبرز الغرب في صورة عنصرية همجية عنفية ، لأن المصالح هي التي تحكم سلوكه ، فإذا نظر المسلمون إلى الغرب من هذه الزاوية فإنهم يرونه نسخة واحدة ، عنوانها « الشر » .

٢- يتعامل الغرب مع أبنائه والمقيمين فيه وفق مبادئ عادلة ، ويلتزم بمعايير تختلف عن تلك التي يتعامل بها مع الأمم الأخرى . وهنا تبرز حقيقة هي : إن أبناء الغرب ليسوا نسخة واحدة .

٣- أحدث الوجود الإسلامي في الغرب هزة (أزمة) ، وتعددت مواقف أصحاب القرار من التعامل مع هذه الأزمة الجديدة ، ونذكر منها هنا :

- الدعوة إلى **تهجير** الوافدين وذراريهم ، وهو موقف مرفوض "الآن" .

- الدعوة إلى **دمج** المسلمين في المجتمع ؛ وأصبح الدمج يعني : الاعتراف بخصوصيات المسلمين الدينية والثقافية التي تتماشى مع الدستور والقانون .

- الدعوة إلى **تذويب** المسلمين ورفض السماح لهم بوجود مستقل يجعلهم لوناً في الفكر والاجتماع والسياسة .

- أما الموقف **العنصري** فهو يشمل الموقف من المسلمين وغيرهم ، وإن كان متميزاً حين يتعلق الأمر بالمسلمين المهاجرين نظراً للخلفية التاريخية .

ويبقى « دمج المسلمين في المجتمع الغربي » هو المرغوب به في معظم البلدان الغربية ، ولا يطعن في هذا وجود حالات تدل على « التذويب أو العنصرية » ولا يقدح في هذا الذي نقرره وجود صور من الحوار - الذي يحتد في بعض الأحايين - من أجل تحديد الحقوق والواجبات .. فهذا أمر طبيعي في مثل هذه الظروف .

أسفرت المتغيرات والتفاعلات المشار إليها داخل الجماعة المسلمة والمجتمع الغربي إلى بروز حالات متطورة يروم أصحابها فهم الواقع بطريقة أفضل ، وتحديد طريقة التعامل السليمة معه . وسأتناول - بإيجاز - أمثلة تدل على التطورات في صف المسلمين :

١- **الجنسية** : شهد موقف الوافدين من حمل الجنسية الغربية تغيراً كبيراً ، فبعد أن كان كثيرون منهم يرون الحصول على الجنسية خيانة دينية أو قومية ، أصبحوا لا يمانعون في نيلها بدوافع متعددة ، وهذا يدل على تأثير طبيعة العلاقة مع المجتمع على الموقف والفتوى .

٢- **المواطنة** : ولئن استساغ بعض الوافدين الحصول على الجنسية الغربية ، إلا أن معظمهم كان يريد العلاقة مع الغرب علاقة ورقية لا ترقى إلى الشعور والولاء المعبر عنه بـ « **المواطنة** » ، ولكن هذا عند الجيل الثاني ومن بعده مختلف كثيراً ، فهذه الأجيال تشعر بارتباط عضوي ومصيري

بالغرب ، وصارت تعتبر بلدان الغرب وطناً يطالبها – كسائر أبنائه – بالواجبات حتى تنال الحقوق بجدارة .

٣- **العلمانية** : يرمز مصطلح « العلمانية » عند المتدينين الوافدين إلى محاصرة الإسلام وإبعاده عن مراكز التأثير والتوجيه في حياة المسلمين ، ولكن المسلمين في الغرب صاروا رويداً رويداً يرون أن « العلمانية » في الغرب خير من تسلط مذهب بعينه ، ويستحضرون في ذاكرتهم تاريخ أوروبا الذي لم يعرف التعدد المذهبي فضلاً عن التعدد الديني والثقافي . والشعوب الغربية تبشر بالتعدد الديني والثقافي والسياسي ... ولكنها لم تختبر بعد هذه المقولات التي تنص عليها الدساتير ، وستحدد طريقتها في التعامل مع المسلمين ما تعنيه بالتعدد الديني والثقافي .. فهذا امتحان عسير للغرب .

٤- **الانفتاح على مؤسسات المجتمع** : أسفر عن استقرار الوافدين وأبنائهم مراجعة الموقف النفسي والفكري الذي كان وراء الانغلاق على الذات وتكوين التجمعات المعزولة ، وبرز مصطلح « الانفتاح » كعنوان على نقد هذه الممارسة ، وحمل معه فكرة وجوب الاتصال بالمجتمع ومؤسساته السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية .. ولعل المتدينين أكثر فئات المسلمين حرجاً عند التعامل مع تجليات الانفتاح في المجتمع الغربي ، ولكنه تبلور عند عامتهم في أنه يعني :

- **التعريف بالإسلام وقضايا المسلمين .**
- **التعرّف إلى الآخرين وقضاياهم .**
- **التعاون في المجالات التي هي محل اتفاق (الجريمة ، المخدرات ، البيئة ..)**
- **المجادلة بالتي هي أحسن (الحوار) وذلك ببيان صواب الفكرة الإسلامية وضعف الأفكار الأخرى .. بالدليل .**

٥- **العمل السياسي** : فبعد مرحلة الانغلاق والانزواء جاءت مرحلة الاتصال والتفاعل ، ويتكرر الكلام عن الانتخابات وفوائد ، أو جواز ، المشاركة فيها ، وكثر الحديث عن الدخول في الأحزاب القائمة أو تشكيل أحزاب إسلامية ، وهناك محاولات محدودة ، وتتصاعد النداءات بوجوب تكوين « جماعة ضغط » تعمل وفق اللعبة السياسية في الغرب على تحقيق أهداف المسلمين وحمايتهم ، والدفاع عن قضايا العالم الإسلامي العادلة .

٦- **مؤسسات تمثيل المسلمين** : أدركت فئة من المتدينين أن الغرب لن يعطي المسلمين حقوقهم ، إلا إذا تبلورت هذه الحقوق في صيغ يستطيع المشرعون الغربيون تصورها ، وأن مؤسسات الغرب لا تتحاور إلا مع تيارات تشكل وزناً من الناحية العددية والتنظيمية ، لذلك تنادى الذين شعروا بواجب التحاور مع المؤسسات صاحبة القرار إلى تكوين مؤسسات جامعة ، ينضوي تحت

لوائها جميع – أو معظم – المؤسسات الدينية الفعالة ، على أن تكون مهام المؤسسات الجامعة محصورة في « **تمثيل المسلمين لدى مؤسسات المجتمع لتحقيق المصالح ودفع المفاسد العامة** » ، وقد خطى المسلمون خطوات مشكورة في هذا المجال ، وما يزال ينقصهم الكثير .

٧- **العلاقة مع العالم الإسلامي** : يصر أصحاب القرار في الغرب على أن المواطنة تعني : قطع الارتباط العضوي للمسلمين مع العالم الإسلامي ، ويرى الوافدون أن هذا ظلم ، وأنه لا يمكن فصلهم عن ماضيهم ، بينما لا يعاني المسلمون من أصل غربي ، وكذلك معظم الجيل الثاني ، من هذه الإشكالية . لأن هؤلاء لا يجدون غضاضة من اعتبار أنفسهم غربيين ، وأن ارتباطهم بالعالم الإسلامي لا يعدو عن كونه ارتباطاً ثقافياً دينياً، ويرى الوافدون أن المواطنة تعني : دفع الأذى وجلب المصالح بعيداً عن الظلم ، وهذا ما يطالب الإسلام به المسلمين .

وبعد : فإن حركة الفكر السياسي ستتابع المسير ، وهذا يفرض على حملة رسالة الإسلام أن يتقدموا الصفوف من أجل قيادة المسلمين إلى تحقيق أمرين :

١- المحافظة على الهوية الإسلامية .

٢- توفير شروط الإيجابية في الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية في الغرب .

الحاجة إلى أدباء في الغرب

يدرك المسلمون في الغرب أن للوجود الإسلامي النامي مقتضيات إذا لم تتوفر بصورة فعالة ، فإن تشوهات خطيرة ستظهر في البنية الفكرية والنفسية والخلقية للأجيال الناشئة . وهذا الموضوع يسيطر على اللقاءات والتجمعات صغيرها وكبيرها ، وتشغل قضية «اللغة الأم» بال الآباء والمهتمين بالتربية من الجيل الوافد ، وبخاصة اللغة العربية . ولا ينكر إلا مكابر تأثيرات اللغة التي يتلقى بها الناشئة معارفهم المتنوعة على الفكر والسلوك . ونحن مع حرصنا الكبير على نقل لغة الآباء إلى الأبناء الذين صاروا عملياً «مواطنين» في الدول الغربية ، إلا أننا ندرك الصعوبات التي تعترض هذه الرغبة الصادقة ، ونشير هنا إشارات إلى مشكلات عملية ولا ندخل في تفاصيل .

عقبات أمام تعليم لغة الآباء

- ضعف مستوى اللغة الأصلية لدى الآباء وهيمنة اللهجات المحلية (القطرية) في الحديث اليومي ، حتى داخل الأسر المتلهفة إلى تعليم الأبناء لغة آبائهم .

- عدم توفر برامج تعليمية نابعة من الحاجة الملحة ومستجيبة لمستوى استيعاب الأبناء الذين يدرسون علومهم بلغة أخرى . ولا يحل هذه المشكلة استجلاب برامج موضوعة أصلاً للتعليم في بلد إسلامي ، أو تلك التي يعتمدها غير المختصين .

- الافتقار إلى مصادر معرفة موجّهة إلى الأجيال بلغة الآباء ، وتستجيب لحاجات الناشئين (الأدب ، التاريخ ، العلوم الإنسانية ..) .

- ضعف مستوى أداء المتصدين لعملية «التعليم الإضافي» سواء كان التعليم في المساجد أو المدارس التي يسمح فيها بساعات لدراسة لغة الآباء ودينهم .

هذه الإشارات السريعة في موضوع اللغة تقودنا إلى القول :

١- إن الأجيال الناشئة في الغرب لن يكون بإمكانها أن تتعلم لغة من لغات العالم الإسلامي بحيث تكون لغة ثقافة ومعرفة بالنسبة إليهم .

٢- ولا يدل تمكن أفراد – بمواهبهم وخصوصيات بيئتهم – من تحصيل مستوى لغوي شرعي جيد ، على أن الكثرة الكاثرة من الناشئين في الغرب تستطيع الوصول إلى ما وصل إليه قلة من الموهوبين ، الذين سيقومون بدور «الوسيط» الذي ينقل المعاني الشرعية إلى اللغات الأوروبية ، مولدين

بذلك لغة خاصة داخل كل لغة ، تماماً كما حدث مع اللغات غير العربية التي ينطق بها المسلمون اليوم ، كالتركية ، والفارسية ، بل ما تزال لغات كالإسبانية تحتفظ في مخزونها اللغوي – سواء المهجور أو المستخدم اليوم – برصيد كبير من الكلمات العربية الأصل ، وستحمِّل الأجيال الناشئة في الغرب قائمة طويلة من الكلمات المعاني التي تؤمن بها ، وسيكون أجيال المسلمين في الغرب قادرين على استخدام المصطلحات بمعناها العام في المجتمع المحيط ، وبمعناها الخاص عند الحديث عن الإسلام .

٣- وهذا الواقع لا يعفينا من بذل أقصى ما نستطيع من أجل تعليم اللغة العربية لأكبر عدد ممكن من أبناء المسلمين ، باعتبارها ضرورية للنطق السليم بالقرآن الكريم على الأقل ، وهذا الواجب ينبغي أن يشمل البرامج والوسائل والإنسان المعلم ، وسيأخذ كل فرد من الناشئين بحظ من التحصيل اللغوي، بحسب اهتمامه ، ومواهبه ، والبيئة المعلمة والمربية .

وفي ختام هذه الجولة السريعة في هذا الحقل الخطير ، والذي ضربناه مثلاً لقضايا تشغل بال المسلمين في الغرب ، نود أن نقول :

أولاً : ينبغي أن يعيد الآباء والمربون – وبخاصة المنتمين إلى تيار التجديد الإسلامي – النظر في المجالات التي يوجهون إليها أبناءهم ، وتحديداً الموهوبين منهم ، فنحن لا ننكر أهمية المجالات العلمية ، إلا أن مجالات العلوم الإنسانية أكثر أهمية ، لأنها تخرج قيادات المجتمع الفعلية .

ثانياً : ويجب أن يحظى «الأدب» باهتمام كبير ، لأن هناك ضرورة تستدعي تشجيع فن القصة والأقصوصة والرواية والشعر ، وحتى التغني بالشعر «الغناء» ينبغي أن يعتنى به ، لقوة تأثيره في غرس المعاني في النفوس ، ولا يخفى أننا نعني : الغناء المشروع مضموناً وأداء .

والعجيب الغريب هو انعدام التوجيهات في هذا المجال الحيوي ، على الرغم من رؤيتنا كيف يتهافت الجيل الناشئ على قراءة ومشاهدة قصص الأطفال والكبار ، مع ما تحمله من موروث ثقافي فيه كثير من المعاني المرفوضة إسلاميا .

وإن إقبال الأطفال على أمهاتهم اللاتي يروين على مسامعهم قصصاً سمعوها في طفولتهن ، ليعطي الدليل القاطع على حاجتنا إلى أدباء وأديبات ، ينهضون جميعاً بتوفير مادة أدبية مؤثرة ؛ تحمل ثقافتنا الإسلامية إلى أجيالنا الناشئة في الغرب ، وتعرف المجتمعات الغربية بقيم الإسلام العظيم بأسلوب راقٍ ولغة جميلة .

الخصوصية الثقافية

في الفكر الإسلامي المعاصر

وقفة مع العنوان

تحمل «المصطلحات» دلالات وإيحاءات عميقة عندما تكون مستخدمة في الخطاب اليومي بين الناس ، فهم يحتاجون إليها لتحميلها منظومات فكرية ، وخلقية ، وتشريعية ، .. إلخ .

ويأتي مصطلح «الثقافة» في مقدمة المصطلحات التي شاع استعمالها كثيراً ، وتنازع الناس في تحميلها المعاني وتباينوا ؛ فمنهم من يحصر معناها في العادات والتقاليد والأعراف والفنون بأنواعها ، ومنهم من يراها تشمل – بالإضافة إلى ما ذكر – القوانين والفلسفات .. وهناك من يدخل «الدين» في العناصر المكونة للثقافة .

ونحن سنستخدم مصطلح «**الثقافة**» بمعناها الواسع ، ونقصد بها : كل ما يميّز أمة أو جماعة وتعتبره جزءاً من شخصيتها المعنوية ؛ فتفخر به ولا تتنازل عنه ، وعلى هذا فإننا نرى أن «**الدين**» هو الهوية الثقافية للمسلمين ، لأنه يتضمن «**العقيدة**» التي تزوّد المسلم بغاية وجوده الإنساني ، وتؤسس لعلاقته مع الخالق ﷻ ، ومع الخلق ، وعنها تنبثق : «**الشعائر التعبدية**» و«**منظومة القيم الأخلاقية**» و«**الشريعة**» التي تبين للناس بوضوح :«الحلال والحرام» و«الحق والباطل» و«العدل والظلم» و«الحسن والقبيح» ، وبناء على ذلك فالدين ينشئ العادات الحسنة ، والتقاليد الكريمة ، والفنون الراقية ، أو يقبل – بضوابطه – عادات وفنوناً تعارف عليها الناس ، وهذا يعني ببساطة أن التقاليد والعادات والأعراف التي يرفضها الإسلام ، لا تدخل في «الخصوصية الثقافية للمسلمين» مهما شاع أمرها وانتشر العمل بها ، وظنّ من لا علم عنده أنها من الدين !!.

وأما مصطلح «**الفكر الإسلامي المعاصر**» فنعني به : نتائج تفاعل المسلمين المعاصرين مع الواقع ، فالإنسان مضطر إلى تحديد موقف مما يحيط به ويؤثر فيه ، فإذا تفاعل مع الواقع بخلفيته الدينية الإسلاميّة ، فإن النتائج التي يتوصل إليها تكون إسلاميّة من هذا الجانب ، ولا يعني هذا أن كل مفكر مصيب .

وبما أن «**الفكر**» اجتهاد إنساني ، فإنه معرّض لإمكانية أن يكون صواباً أو خطأً ، ومعلوم أن الإنسان حين يمارس عملية «**الاجتهاد** = **التفكير**» فإن النتائج التي يتوصل إليها تتأثر بمستوى «**المعرفة**

الشرعية» مثل : نوعية المعلومات – تماسك المعلومات وتناسبها – التفريق بين الأصول والفروع – التمرّس بـ «**فقه المقاصد**» و«**فقه الأولويات**» و«**فقه الموازنات**» و«**فقه المآلات**» .

ويتأثر «**الفكر**» أيضاً بـ «**معرفة الواقع**» وبخاصة ثوابته ومتغيراته ، والقوى الفاعلة فيه «محلية ، وإقليمية ، ودولية» و«سنن التدافع» و«قوانين التغيير» .. إلخ .

ويؤثر في «**الفكر**» أيضاً القدرةُ على الربط بين المعرفة الشرعية ومعرفة الواقع ، وهنا يجب التمييز بين «فقه العالم» و «فقه الراهب» ؛ فالعالم يرى بنور العلم مراد الشرع وحقائق الواقع ، ويستنبط بقوّة عقله وإخلاصه الموقف الملائم لكل حالة ، أما الراهب فإن إخلاصه كبير ، ولكن معلوماته سطحية أو مفكّكة ، وتأتي استنباطاته الانفعالية هزيلة أو قاتلة! ، لأنه غير مؤهل للاجتهاد .

وما أكثر «الرهبان» في الساحة الإسلاميّة اليوم وأقل «العلماء الربّانيّين»!!

لقد جاءت نصوص القرآن والسنّة تؤكد على ضرورة توفير الشروط المثلى عند ممارسة «عملية التفكير» أي «الاجتهاد والفتوى» ونستأنس هنا بحديثٍ نبويٍّ عميق الدلالة في هذا الباب .

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبيّ الله ﷺ قال : «**كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ . فَأَتَاهُ فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ : لاَ ، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ ، فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ ؛ فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ . فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ : جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ : إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ ، فَقَالَ : قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ ، فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ** » .

فإذا نظرنا – في ضوء ما سبق ذكره – إلى مفهوم «**الخصوصية الثقافية في الفكر الإسلامي المعاصر**» فإننا نجد تبايناً في تحديد المقصود بـ «الخصوصية الثقافية» وذلك على الرغم من أصالة الفكرة وضرورة تحديد موقف شرعي منها :

▪ فهناك من يرى الخصوصية متمثلة بـ «**العقيدة والشعائر التعبدية والقيم الأخلاقية**» ويرفض أن تؤخذ «الشريعة» بكاملها لتكون جزءاً من الخصوصية الثقافية ، ويرى هؤلاء أن للشريعة مقاصد، وهذه المقاصد يلتقي فيها المسلمون بآخرين ، كتحقيق العدل وإزهاق الظلم ، ودرء المفاسد وجلب المصالح ، وينبغي أن تتطور التشريعات العملية بما يتناسب مع التطور البشري وينسجم مع روح العصر ، وهذا موقف المتأثرين بالغرب .

▪ وهناك من يتوجس من العصر وإفرازاته ، فيحتمي بالماضي ويستدعيه للحكم على الحاضر ومواجهة تحدياته ، من غير تفريق بين «**أحكام الإسلام الثابتة**» و «**اجتهادات السابقين من أهل العلم**» أي «الفكر الذي كان سائداً ومتفاعلاً مع واقع تلك الأيام» ، فيحكم الحاضر برؤى الماضي الاجتهاديّة .

▪ ويؤمن فريق ثالث بتلاقح الثقافات والحضارات ، ويبحث عن المساحة التي تشكل قاسماً مشتركاً مع الآخرين ، ويرى أن الحكمة ضالة المؤمن ، ويصرّ هذا الفريق على أن تبقى «**العقيدة ، والشعائر التعبدية ، ومنظومة القيم ، والشريعة**» مصدر تحديد الخصوصية وموجهاً للتعامل مع اجتهادات أصحاب الثقافات الأخرى ، ويؤكد هؤلاء على التزام «**الشريعة**» باعتبارها موطن التنازع ومظهراً من مظاهر التميّز ، وهي محل «**الاجتهاد = الفكر**» ، ويدعو هؤلاء إلى إحياء الاجتهاد وذلك بالاستنباط المباشر من النصوص ، مع الاستئناس باجتهادات الأجيال السابقة .

نخلص من الكلام عن التباين في تحديد مفهوم الخصوصية الثقافية إلى أن «الفكر الإسلامي المعاصر» يتوزع عملياً على ثلاثة اتجاهات رئيسية : **اتجاه ماضوي** ، **واتجاه متغرب** ، **واتجاه أصيل يصل الماضي بالحاضر** ، ونرى أن هذا الاتجاه الأخير قد أصاب كبد الحقيقة ؛ فقد دعا إلى التمسك البصير بالإسلام ؛ عقيدةً وشريعةً ، ونادى بالتفاعل الواعي مع العصر عن طريق الاجتهاد المستنير بأحكام الشرع .

متى ظهرت الحاجة إلى الخصوصية ؟

لقد ظهرت الحاجة إلى التأكيد على « الخصوصية الثقافية » للمسلمين عندما فرض الغرب سيطرته المباشرة وغير المباشرة على العالم الإسلاميّ ، ونشير هنا إلى مرحلتين بارزتين :

الأولى : مرحلة الاستعمار الأوروبي : فقد أسفرت الحملات الاستعمارية التي وجهتها دول أوروبية إلى العالم الإسلامي عن وقوع معظم البلاد الإسلامية تحت السيطرة المباشرة للجيوش الأوروبية ، ونتج عن الوجود الاستعماري تغييرات كبيرة وخطيرة في البنية الفكرية والثقافية والتشريعية

والأخلاقية والاجتماعية ، وقد تمثلت بإقصاء «**الشريعة**» من الحكم وفرض القوانين الأوروبية، وبمحاصرة المدارس الدينية، والترويج لما سميُّ «المدارس العصرية!» وبالسعي الحثيث لعلمنة المسلمين !! .

أمام هذا الاجتياح الثقافي وحملة الاستلاب الحضاري والتغريب ، وإقامة أنظمة حكم تبنت مناهج المستعمرين وعملت على إضعاف الالتزام الديني .. هبَّ الغيورون للدفاع عن ثقافتهم ووجودهم ، وتنوّعت عباراتهم في التعبير عن المأساة التي هزّت كل شيء وهدّدت بتهديم مقومات الأمة المسلمة .. حتى قال شاعرهم مجسداً جوانب المأساة :

لا خير في العيش إنْ كانت عقيدتُنا
أضحى يزاحمها كفرٌ وعصيـــانُ
لا خير في العيش إنْ كانت مبادؤنا
جادت علينا بها للكفر أذهـــانُ
لا خير في العيش إنْ كانت حضارتُنا
في كل يوم لها تنهـــدُّ أركـــان
لا خير في العيش إنْ كانت مواطنُنا
نهباً بأيدي الأعادي أينما كانوا

الثانية : مرحلة العولمة : فقد شهدت الدنيا هجوماً إعلامياً وسياسياً زاحفاً وقوياً يحذر من «الخطر الأخضر» في مرحلة احتضار المعسكر الاشتراكي ، وبعد انهياره . وحين وقعت كارثة ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م حلَّ التصريح بدل التلميح بضرورة التصدّي للفكر الدينيّ الإسلاميّ ، وطالبت أمريكا الدول الإسلاميّة بتعديل المناهج وإقصاء كلّ ما يدعو إلى التميّز والشعور بـ «**الخصوصية الثقافية**» و«**الممانعة**» و«**المقاومة**» ، وتبنّت مع قوى عالمية شنَّ حرب التشويه لكل من يبدي التزامه بالإسلام منهج حياة . ونظرت قوى غربيّة إلى التيّار الإسلاميّ المتديّن نظرة سلبيّة قادمًا إلى سوء الظنّ به وتشويه صورته ، والضغط عليه لكي يتنازل عن خصوصياته .

إنّ هذا الهجوم سيولّد مقاومة ورفضاً ، وسيكون الرفض مصحوباً بشعور عميق بظلم القوى التي تسيء الظنَّ بالتيار المتديّن ، وهذا سيؤثر سلباً على التفاهم والاندماج الإيجابي والتفاعل المريح بين مكونات المجتمع ، وعلى الصعيد العالمي .

المسلمون في أوروبا والخصوصيّة الثقافية

إنّ كون المسلمين في أوروبا أحد مكوّنات المجتمعات الأوروبية حقيقة لا تقبل الجدل ، وينبغي أن يشعر هؤلاء المسلمون بالأمن حين يمارسون ما يرونه من خصوصيتهم الثقافية (الدينية) شريطة أن لا يعتدوا على أحدٍ ، ولا على المجتمع .

وهذا الذي نقوله وندعو إليه حقّ طبيعيّ ، وتنص عليه الدساتير ، إلاّ أن قوى متنفِّذة لا يروق لها أن يتمسك المسلمون بخصوصيتهم ، والمثل الصارخ على مضايقة المسلمين والتدخل في خصوصياتهم موضوع «الحجاب» فهناك دول منعت الفتيات المسلمات من لبس الحجاب في مدارسها ، وهناك دول تمنع المحجّبة من أن تكون موظفة في الدولة ، وبتأثير الإعلام المشوِّه لصورة الإسلام والمسلمين يرفض كثيرون قبول المسلمة المحجبة في العمل !! .

مع من يختلف المسلمون ؟!

إنّ النظرة الفاحصة تبيّن أنّ خلاف المسلمين ليس مع الشعوب الأوروبيّة أو غيرها ، وإنما الخلاف يفرضه «**الملأ**» بالتعبير الإسلاميّ ، أي : السلطة السياسية والسلطة الاقتصادية ، وقد يعاونهم آخرون كتابعين .

فالملأ هم الذين يتخذون المواقف ، ويصنعون الأفكار والأذواق ، ويخافون من الذين يؤمنون بما يميّزهم ، ويسعون إلى محاصرتهم وتشويههم .

وينبغي أن يدرك المسلمون هذه الحقيقة ، والدليل على إدراكها أنهم يرفضون «العزلة» التي يحاول الملأ فرضها عليهم ، ويعملون بصدق على التواصل الإنساني والحضاري مع مكوّنات المجتمعات الأوروبية الثقافية والدينية ، وأنّ عليهم أن يبينوا حقيقة ما يجري ونتائجه المروّعة .

موقفنا من الخصوصية الثقافية :

يجب أن يصرّ المسلمون على خصوصيتهم الثقافية بالمعنى الذي قررناه ، ولا يصحّ التنازل عن هذا الحق ، وينبغي أن يتحلّوا بالصبر والمصابرة ، والدفع بالتي هي أحسن ، عندما يعتدى عليهم في خصوصياتهم .

ونقول للذين يسيئون الظنّ بالإسلام والمسلمين :

- حاولوا أن تتعرفوا إلى الإسلام من مصادره ومن أهله ، واحذروا الوسطاء المسيئين ، سواء كانوا مترجمين أم أدعياء معرفة .
- وتواصلوا مع المسلمين ، فإنكم ستجدون عند غالبيتهم الاستعداد للتفاهم والتعاون على الخير ، ولا تضغطوا عليهم ليتنازلوا عن التزامهم بدينهم ، فهذا ليس في صالح المجتمع .

▪ وأيقنوا أن الإسلام يريد بالناس جميعهم خيراً ، ونضرب لكم مثالين يستأهلان الاهتمام منكم ، وهما يدلان على أن عند المسلمين ما يقدمونه لعلاج أمراض تفتك بالمجتمع :

المثال الأول : **الأسرة :**

فالنظام الاجتماعي في الإسلام يقوم على أسس واضحة ، وتشريعاته تتناول قضايا كثيرة ، وفيها الدواء لعلاج آفات تفتك بالأسرة في الغرب وتجعلها مفكّكة .

المثال الثاني : **الربا :**

والنظام الاقتصادي في الإسلام يقوم على أساس ﴿ ... **وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا** ... ﴾ [البقرة : ٢٧٥] وإنّ الفقه الإسلاميّ قد أبدع في الماضي ، وهو في طريقه إلى إحياء الإبداع في الحاضر ، ويقيننا أن المنصفين سيجدون في الإسلام حلولاً لكثير من المآسي الاقتصادية التي سببها النظام الربويّ الجشع

ختاماً .. نقول بوضوح :

ليس من الأمانة أن يتخلى المسلمون عن خصوصيتهم الثقافية مهما كانت الضغوط ، فالصبر في أيام الشدّة يفتح أبواب الفرج ، ويحلّ التفاهم محل سوء الظنّ والتخاصم .

وليس من العدل أن تصِّر قوى في الغرب على أن يشوّه المسلمون فهمهم لدينهم ، أو أن يتخلّوا عنه خوفاً أو طمعاً ، فهذا المسلك الظالم يهدر تجربة إنسانية ربما كانت سبباً في خروجهم من أزمات كثيرة .

الأخلاق الإسلامية والقيم الإنسانية

أولاً : توطئة

❍ تحظى الأخلاق في الإسلام بمكانة سامقة، وقد تقرر عند أهل العلم من المسلمين أن الإسلام كله أخلاق ، فمن زاد عليك بالأخلاق فقد زاد عليك بالإسلام، وفي الحديث النبوي : « **إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ ، وَالْمُتَفَيْهِقُونَ . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ ؟ قَالَ : الْمُتَكَبِّرُونَ** » (صحيح الجامع الصغير ٢١٩٧) .

❍ وقد مدح الله تعالى نبيه ﷺ بقوله : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم : ٤] .

❍ وبين ﷻ أن الخير الذي بعث به نبيه ﷺ ليس خاصاً بالمسلمين ، فقال : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

❍ ومن هنا فإننا ندرك عمق وسعة قول رسول الله ﷺ : « **إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ** » (صحيح الجامع الصغير رقم : ٢٣٤٥) .

ثانياً : ما الأخلاق ؟

❍ يقول الإمام الغزالي : (يقال : فلان حسنُ الخَلق والخُلق ، أي حسن الظاهر والباطن ، فالخُلق عبارة عن هيئة راسخة في النفس ، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير فكر ولا روية) .

ثالثاً : أنواع الأخلاق

١- **الأخلاق محمودة ومذمومة** ؛ وهذان القسمان متجاوران في النفس البشرية (الصدق والكذب ، الإخلاص والرياء ، الأمانة والخيانة ، الشجاعة والجبن .. إلخ) ، وهما محل اختبار للعباد ، قال الله تعالى : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** ﴾ [الشمس : ٧-١٠] .

٢- **والأخلاق وهبيّةٌ وكسبيّة** ؛ وهي مختلفة قوة وضعفاً من إنسان لآخر ، والأخلاق المحمودة الضعيفة يمكن تحصيلها عن طريق رياضة النفس على التخلُّق بها ، والأخلاق المذمومة في مقدور الإنسان أيضاً السيطرة عليها عن طريق المجاهدة ، وما أروع حديث رسول الله ﷺ وهو يرشد إلى هذا المعنى : « **إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ ، وَمَنْ يَتَحَرَ الْخَيْرَ يُعْطَهُ ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ** » (صحيح الجامع الصغير ٢٣٢٤) .

٣- **والأخلاق إنسانية وإسلامية** ؛ فالإنسانية يمكن أن يتحلى بها المسلم وغير المسلم ، مثل : (الشجاعة ، والكرم ، وبر الوالدين ، والعطف ، والعفو ، والإحسان، والصبر ..) ، والإسلامية نقصد بها هنا : الأخلاق التي لا يمكن توفرها إلا عند من يؤمن بالله تعالى ورسله واليوم الآخر ، مثل : (الإنابة ، والتوكل ، والخوف ، والرجاء ، ..) ، مع الإشارة إلى أننا نوافق الإمام الشهرستاني فيما ذهب إليه في (الملل والنحل) حيث قرر أن معاني الخير التي تُنسب إلى رجال ليسوا بأنبياء ، إنما هي بقايا النبوات في الناس ، ولكنهم جهلوا مصدرها الأول فنسبوها إلى من علموا أنه قالها أو اتصف بها .

ولا ريب في أن ما سميناه (**الأخلاق الإنسانية**) جزء أصيل من (**الأخلاق الإسلامية**) وقد لجأنا إلى هذا التصنيف لنقول : **إن هناك مساحة شاسعة من الأخلاق التي يمكن أن تتوفر لدى الإنسان ؛ سواء كان مسلماً أو غير مسلم ، وأن الذي يتصف بها يحصل نتائجها بصرف النظر عن جنسه ودينه ، وهذا ما تؤكده نصوص القرآن والسنة** ، ونذكر هنا :

- قول الله تعالى : ﴿ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۞ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا** ﴾ [الإسراء : ١٨-٢٠] .

- وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

رابعاً : ما ضوابط تعامل المسلم مع غير المسلم ؟

❍ الأخلاق هي التي تضبط تعامل المسلم مع الناس أجمعين ، سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين ؛ فمن أحسنَ عُومل بالإحسان ، ومن أساء فلا بد من تحديد التصرف الذي يدفع إساءته ، وسأشير إلى آيات في هذا الصدد :

– قال الله تعالى : ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا** ... ﴾ [آل عمران : ٧٥] .

– وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [الممتحنة : ٨-٩] .

خامساً : هل يعترف المسلم بوجود أخلاق حميدة عند غير المسلمين ؟

الجواب : نعم ، وقد سبق أن ذكرنا هذا ، ونضيف هنا ما ذكره الإمام مسلم في باب (الفتن) من صحيحه :

« قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : **تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ** .

فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو : أَبْصِرْ مَا تَقُولُ !! .

قَالَ : أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

قَالَ : لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ ، **إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالاً أَرْبَعًا : إِنَّهُمْ لأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ** ، **وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ** ، **وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ** ، **وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ** ، **وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ : وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ** » .

سادساً : قاعدة جليلة في التعاون بين البشر

– قال الله تعالى : ﴿ ... **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ... ﴾ [المائدة : ٢] ، فهذه الآية عامة تشمل المسلمين وغير المسلمين .

سابعاً : أمثلة من الرسول ﷺ :

١- من الثابت أن رسول الله ﷺ استأجر عبد الله بن أريقط ليكون دليلاً له ولأبي بكر يوم الهجرة ، و لم يكن مسلماً ، إلا أنه كان ثقة في أخلاقه ، فلم يخن العهد .

٢- قول النبي ﷺ : « **لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله ابن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت** » . وهذا الحلف تسميه بعض كتب السيرة (حلف الفضول) وفيه تحالفت قبائل عربية وتعاقدت على ألا يجدوا في مكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا وكانوا معه على من ظلمه .

ثامناً : وماذا عن عصرنا ؟

❍ هناك مجموعة واسعة من القيم الإنسانية الطيبة ، والتي دعى إليها الإسلام ، قد أصبحت محل اتفاق بين البشر ، ودخلت مواثيق المؤسسات الدولية والحكومات . وتحقيقها في الواقع يحتاج إلى تضافر الجهود ؛ دعماً للتطبيقات الإيجابية ومحافظة عليها، ورفضاً للممارسات السلبية وعملاً على تغييرها ، وهذا التعاون يجب أن يكون مستمراً ويقظا .

❍ إن التعاون بين البشر لا يؤتي ثماره إلا إذا قام على (التعارف) و (الثقة) ، والإسلام يطالب بذلك : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ... ﴾ [الحجرات : ١٣] .

❍ وقد يعتري الحياة البشرية أزمات تزلزل العلاقات بين الأمم والأديان والجماعات ، وقد ينشأ عنها المآسي الخطيرة ، وبخاصة إذا سيطر على القرار ضعاف الأخلاق .

فإذا مرت العلاقات بين الناس بهزات ومصائب فإن على المصلحين أن يهبوا لإصلاح ما فسد ، وأن يتنادوا إلى تعاون مثمر يعود على الناس بالخير ويجنبهم المصائب أو يخفف من غلوائها .

❍ والبشرية اليوم تعترف بالقيم الراقية العادلة المنصفة ، وهذا مهم جداً في الإصلاح ، وما نراه من تناقض - أحياناً — بين الإقرار بالحق وممارسة الظلم ينبغي ألا يدفعنا إلى سوء الظن بالإنسان وبقدرته على التحلي بمكارم الأخلاق ، بل يجب على العقلاء وأهل الفضل أن يصروا على التعاون من أجل غد أفضل للإنسان .

❍ وأخيراً أقول : إن أزمة الناس الطيبين تنحصر اليوم في أمرين :

- الأول : عدم توفير الأخلاق الجماعية التعاونية داخل النفس بالشكل المناسب والعدد

الكافي لجمع الجهود الخيرة كما يجب .

- **الثاني : فقدان أو ضعف الصور العملية التي تجسد التعاون على المتفق عليه بين البشر وترسخه في حياة الناس .**

ولذلك يجب أن يبقى شعار أهل الأخلاق مرتفعاً ، وأن يسعوا إلى تحقيقه في الواقع :

﴿ ... **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ... ﴾ [المائدة : ٢] .

دروس من الروم (أوروبا)

ذكر لي أخ كريم أن الإمام مسلم قد روى في « كتاب الفتن وأشراط الساعة » من صحيحه حديثاً يثير الاهتمام ، ويدعونا إلى التأمل . ثم نهض إلى مكتبتي وتناول صحيح مسلم وقرأ عليّ :

« قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « **تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ** » .

فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو : أَبْصِرْ مَا تَقُولُ !!

قَالَ : أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

قَالَ : لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ ، إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالاً أَرْبَعًا : إِنَّهُمْ لأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ ، وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ . وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ : وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوك » .

ولقد تأملت في موقف عمرو بن العاص ﷺ ، بعد ما تأكد من صحة نبوءة الرسول ﷺ ، لقد رجع إلى خبرته بالشعوب والقبائل ، فتذكر من صفات الروم ما أزال استغرابه ، وذكر من شمائلهم ما يؤهلهم للكثرة والظهور. إنهم :

١- **أحلم الناس عند فتنة** .. فلا تستفزهم التحديات فتدفعهم إلى تصرفات طائشة متسرعة مهلكة ، بل يتماسكون أمام عوامل الإثارة والتوريط ، ويتفكرون في عواقب الأمور. وهذا لا يمنع أن تمر بهم حالات ضعف أممي تفسد نظرهم وتبلبل تصرفاتهم ، ولكنهم يعودون إلى التماسك وإحياء هذا الخلق « الحلم » الذي يُعد بحق أميرَ أخلاق القوة .

فليت شعري! ما أعظم حاجتنا إلى تعميم خلق الحلم والأناة في حياتنا أفراداً وجماعات ، وبخاصة الذين يحملون مسؤولية قيادية في عمل جماعي طلباً لرضوان الله عزَّ وجلَّ !! روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لأشَجِّ عبد قيس : « **إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ : الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ** » .

وقد كان رسول الله ﷺ يحضُّ على « **التحلّم** » وهو : حمل النفس على الحلم مرة بعد مرة حتى يصير سـجية راسـخة في النفس ، فيقول : « **إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّم ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّم** .. » الحديث .

ويؤلمني أن معظم الدعاة يحصرون مفهوم الحلم بالعلاقات الفردية ، ويغفلون تطبيقاته الجماعية :

السياسية والاجتماعية . ولا أكشف سراً إذا قلت : إن قابلية التأزيم عند التيار الإسلامي ما تزال عالية ، وهذا الذي يجعله فريسة يسهل الإيقاع به من خلال تعريضه للفتن السياسية !! .

٢- وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة .. فالمصائب المزلزلة حين تهجم عليهم قد تُفقدهم توازنهم ، ولكنهم يثوبون إلى التماسك والتجلُّد من قريب .. محاولين تجاوز كوارث الماضي .. ناظرين إلى مستقبل يشع بالأمل .

إن الجزع حين يسري في حياة الشعوب والجماعات ينعكس استسلاماً في قياداتها ومراكز قرارها الجماعي .. أما إذا انتشر الصبر -بمفهومه الشرعي-فإنه يظهر انتصاراً في القيادة والقرارات الجماعية .. هذه المعاني مقررة بنصوص القرآن والسنة ، نذكر منها هنا قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ ... **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۞ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة : ١٥٥-١٥٧] .

إننا في أمس الحاجة إلى مشعل الأمل « الصبر » لنستضيء به في الخروج من ظلمات أزماتنا وكوارثنا الفردية والجماعية .

٣- وأوشكهم كرَّةً بعد فرَّةٍ .. فهم لا يستسلمون للهزيمة إذا حلت بهم ، ولا يتعاطون مع إفرازاتها المخزية ، بل يعمدون إلى جمع قواهم ، ومعالجة أسباب الفرار ، ومعاودة التصدي للخطر الداهم والعدو الجاثم . وهذه المعاني مقررة في نصوص كثيرة ، منها على سبيل المثال قوله تعالى في إعقاب غزوة أحد : ﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ [آل عمران : ١٧٢] . وقوله عز وجل : ﴿ **إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ... ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

إن شيوع نفسية « الكرّة بعد الفرّة » عامل من أقوى عوامل قوة الجماعات والأمم ونهضتها .. ولذلك يصر أعداء أمتنا اليوم على استمراء الأمة للفرة ، وينفروها من الكرّة ، تحت عناوين وشعارات متعددة يأتي في مقدمتها « السلام » و « التطبيع » .

٤- وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف .. فهم يواسون فقراءهم ، ويعطفون على أيتامهم ، ويتداعون إلى مساعدة ضعفائهم .. إنهم لا يرون مواطن الخلل الاجتماعي ويغضون الطرف عنها ، ففي قلوبهم رحمة ، وفي أيديهم عطاء بسخاء .

أليست هذه المعاني مقررة في القرآن والسنة ؟! بلى والذي بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيرا . ويكفي أن نذكر هنا آية جامعة هي قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

ولا يغيب عني أن ناساً من الروم المعاصرين ، قد استغلوا جانب العطف والتعاطف مع المحتاجين ؛ فأقاموا مؤسسات جمعت مالاً ، وطعاماً ، وكساءً ، وسخروا ذلك كله في تحقيق مآرب سياسية ودينية !! وهذا لا يمنع من الإشارة إلى درسين نحتاج إليهما في هذا الميدان :

١- حاجتنا نحن المسلمين إلى إحياء معاني الاهتمام الجاد بالضعفاء والفقراء والمحتاجين .

٢- ضرورة إيجاد صيغ جماعية مناسبة .. تحقق أهداف التعاطف مع المسكين واليتيم والضعيف .

٥- وأمنعهم من ظلم الملوك .. وقد قال عمرو رضي الله عنه عن هذه الخصلة بأنها « **حسنة جميلة** » .. فالشعوب التي تنفر من ظلم الحكام ، وتضطرهم إلى التخلي عن الظلم ، لا ريب في أنها تشعر بوجودها ، وهذا يدفعها إلى عمل إيجابي يؤهلها للنهوض بواجبات البناء ومواجهة التحديات .

إن الأمن السياسي من أهم أسباب نهوض الأمم .. فإذا توفر في أمة أمنٌ سياسي ، وأمن اقتصادي ، وأمن صحي ، فقد حازت على أسباب الاستقرار والنمو والقوة .. وما أروع وأعمق قول الصادق المصدوق ﷺ : « **مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا** » رواه الترمذي .

وبعد :

فهذه خواطر هجمت عليّ وأنا أتأمل كلام عمرو بن العاص في عدد من أخلاق القوة التي كانت – وما تزال – تتحرك في الروم « أوروبا » ويقطفون ثمارها الطيبة ، ونحن معشر المسلمين أولى الناس بالعمل بجميع الأخلاق الإسلامية الفاضلة ، وقد آن الأوان لإعطاء أخلاق القوة

والعزة والتمكين ما تستحقه من الاهتمام ؛ تعليماً وتربية .. فالأخلاق الفردية حسنة ، ولكن لا يصح تهميش أخلاق القوة الجماعية ، وعلى العاملين والمربين واجب آخر هو الإبداع في طرح صور جماعية للتعبير عن هذه الأخلاق الكريمة حتى تؤتي أكلها.

متى يحل التفاهم ويرحل التخاصم ؟

ولدت علاقة الإسلام بأوروبا منذ الأيام الأولى لبعثة خاتم النبيين محمد ابن عبد الله ، عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين الصلاة والسلام . فقد قررت نصوص القرآن بوضوح :

- أن محمداً هو خاتم موكب رسل الله الكرام .. عليهم أفضل صلاة وسلام .
- وأن عيسى بن مريم عليه السلام بشر رسول .. وأن مثله عند الله كمثل آدم ، خلقه الله تعالى من تراب ثم قال له : كُنْ .. فكان خلقه معجزة .
- وأن الله تعالى الخالق الباريء المصور ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص : ٣-٤] ، وأنه عزَّ وجلَّ ﴿ ... **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى : ١١] .

وأكّدت نصوص القرآن والسنة أن أهل الكتاب « اليهود والنصارى » قد ابتعدوا عن التعاليم التي بعث الله بها موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام .. ومع ذلك فقد خصّ الإسلام أهل الكتاب بمعاملة مميزة ، وحضّ المسلمين على التحاور معهم بشفافية واحترام .. ونكتفي في هذا المقام بذكر آيتين توضحان هذه الحقيقة :

١- يقول الله تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ** ... ﴾ [المائدة : ٥] .

٢- ويقول عزَّ وجلَّ : ﴿ **وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [العنكبوت : 46] .

وقررت تعاليم الإسلام مبادىء « **التعددية الثقافية** » في إطار أمّة ودولة ، بموجبها عاش أهل الكتاب في دولة الإسلام آمنين . ومارسوا شعائرهم التعبدية ، ونظموا شؤونهم الخاصة في حماية الدولة وتوجيهات القرآن والسنة ، ولم يطالبهم الإسلام إلا باحترام النظام العام ، والتزام أحكام القانون الذي يجب أن يلتزم به جميع من يعيش في دولة النظام .

رفضت أوروبا – التي كانت تعتبر نفسها حامية النصرانية – ما جاء به الإسلام ، ورأت أن

عليها النهوض بواجب التصدّي لانتشار الظاهرة الإسلامية ، فكان ما هو مسطور في صحائف التاريخ .. وما هو غير مسطور .. من المواجهات الفكرية والسياسية والعسكرية .. التي دامت قروناً مخلّفة في أعماق الطرفين ما نسميه بـ « **الذاكرة التاريخية** » التي توحي بمواقف الرفض والشكّ والكراهية .

ودار الزمان دورته .. وحلّت بالمسلمين سُنَّةُ من سبقهم ﴿ ... **فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد : 16] ،﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا** ﴾ [مريم : ٥٩] . فلما استحكم الغيُّ والفسق عن أمر الله تعالى من المسلمين .. سرى فيهم الضعف ؛ فقتل روح الأمة شيئاً فشيئاً ، وهدم بنيانها جزءاً فجزءاً .. فغادرتها دواعي المجد أجمعُها !! .

وتزامن تراكم أسباب الضعف في عقل وحياة المسلمين .. مع تجمُّع عوامل القوة المادية في شعوب القارة الأوروبية .. التي كانت تمر بمرحلة مخاض رهيبة .. فلما وضعت مولودها الجديد ، قرر حين بلغ أشدّه فصل الدين « الكنيسة » عن الحياة ، ورفع شعار « دَعْ ما لِقيصر لقيصر وما لله لله » . وانبجست في أوروبا أفكار وفلسفات أجمعت على تحجيم دور الدين في الحياة ، واختلفت في حدود وجوده الاجتماعي وصلاحياته .

وجدت أوروبا العلمانية الصناعية نفسها أمام مشكلات .. فرأت حكوماتها أن حلها منوط بوضع يدها على مصادر المواد الخام ، وبضمان أسواق تشتري ما تنتجه مصانعها .. فدفعت بجيوشها في البرّ والبحر ، وأسفر عن ذلك بروز « **ظاهرة الاستعمار** » التي تذكرها الشعوب الفقيرة والمستضعفة بمرارة وألم لا حدود لهما .. لأن آثارها الاستغلالية النهبية عاشت مع الأجيال المتتابعة إلى يومنا هذا !! .

وخضعت معظم أقطار العالم الإسلامي .. المنهار من داخله .. لسلطان أوروبا العسكري .. وفرضت الدول الاستعمارية على المسلمين « الفكرة العلمانية » ، وأوجدت أوضاعاً مغايرة لهويتهم الثقافية وشخصيتهم الحضارية ، وربطت أقطارهم بعجلة الاقتصاد الأوروبي – الغربي ، وجزّأت بلادهم ، وزرعت في قلبها « فلسطين » دولة غريبة دخيلة عليهم .. وأمدّتها بكل أسباب القوة والغلبة ، وتعهدت ببقائها! .

وتحركت شعوب العالم الإسلامي مطالبة برحيل جيوش الاستعمار ، وحين تحررت بلاد إسلامية وجدت نفسها محطّمة الإمكانات ، ومُقيدة بسلاسل الغزوّ الثقافي داخلياً وخارجيا .. وكانت الغزوة

الثقافية أحد العوامل التي أيقظت تيار التجديد الإسلامي المعاصر .. الذي حلل أسباب ضعف المسلمين فوجدها تجتمع في أمرين :

١- البعد عن تعاليم الإسلام فهماً وسلوكاً ونظاما .

٢- فرض الفكرة الغربية « العلمانية » في عالم الفكر والاجتماع والتشريع ، وإلزام المسلمين بالتبعية السياسية والاقتصادية والأمنية .

هبَّ دعاة التجديد الإسلامي يرومون تصحيح مناهج الفهم ، وتقويم معايير السلوك ، وضبط الحياة بتعاليم الإسلام الرحيمة الكريمة .. فوجدوا أنفسهم أمام :

- **عقبات داخلية** تمثّلت في أنظمة الحكم العلمانية – وعامتها استبدادية هرقلية – وفي التيار العلماني .

- **وعقبات خارجية** يرعاها ساسة وأصحاب نفوذ وقرار في الغرب .. الذي يملك – في هذه المراحل التاريخية – معظم خيوط القوة والضغط والتأثير والتحوير !! .

وكان طبيعياً .. في أجواء المواجهة بين « الفكرة الإسلامية » و « الفكرة الغربية » .. أن تتعدد قراءات الواقع ، وأن تختلف الرؤى داخل صف المسلمين ، وفي صفوف الغربيين ، وأن تتباين تبعاً لذلك المواقف والتصرفات .

وكان للحركة الاستشراقية دور كبير في صياغة العقليات والتأثير على السلوك والتصرفات .. ولقد رصد المسلمون دوائر الاستشراق ، وميّزوا بين فئتين :

١- **فئة المستشرقين المتحاملين** : وهم الذين انطلقوا من أحكام مسبقة قائمة على موقف معاد .. ويدخل في هؤلاء المستشرقون الذين ولجوا إلى ميدان الاستشراق بدوافع دينية ، وأهداف تنصيرية ، وبواعث استعمارية ، ومآرب سياسية اقتصادية .. وكان واضحاً أن هؤلاء يسعون إلى أهداف يمكن ذكرها في عناوين جامعة :

- بث الوهن والإرباك في فكر المسلمين .. وذلك بالتشكيك بعقيدة الإسلام وقيمه وتشريعاته.. وبالغمز من التراث الإسلامي .
- تهيئة المسلمين لقبول الفكرة الغربية وإفرازاتها .

▪ تكوين ثقافة معادية للإسلام وللحضارة الإسلامية لدى أصحاب القرار الذين يحتكون بالمسلمين وبالحركات الإسلامية قديمها وجديدها .. وبناء موقف معادٍ ورافض للإسلام في نفوس عامة أبناء الغرب .

▪ تزويد أصحاب القرار والمصالح بالمعلومات التي تعرّفهم بالشعوب المسلمة ، وبطرائق التعامل التي تحقق المصالح الغربية .

٢- **فئة المستشرقين المخلصين** : وهم الذين بذلوا وسعهم في التعرف إلى الإسلام كما هو ، وسعوا إلى فهم المسلمين وتقدير نظرتهم إلى الإنسان والكون والحياة .. وهؤلاء أصابوا في أمور ، وأخطأوا في أخرى ، إلا أن خطأهم لا يرجع إلى البواعث ، وإنما إلى ضعف وسائل المعرفة ، أو رواسب تحليل البيئة ، أو عوامل تكوين الشخصية .. ومنها القدرة على الربط بين أجزاء المعرفة .

ولقد قرر علماؤنا – نحن معشر المسلمين – حقيقة تضبط الأخذ عن أهل العلم وترك اجتهاداتهم، وهي : « ليس أحدٌ إلاَّ ويُؤخذ من رأيه ويترك ، ما خلا النبي ﷺ » . فإذا كان المسلمون يرون هذا في حق علمائهم ، الذين يؤمنون بالإسلام وعاشوا مع نصوصه عن علم يؤهلهم لفهم مقبول ، فمن باب أولى أن يحتاط المسلم عند الأخذ عن المستشرقين .. لأن القضية لا تتعلق بالصدق وإنما بالصواب .. الذي ربما أبعد عنه أمران :

الأول : عدم الوقوف على جميع المعلومات في مسألة من المسائل .

الثاني : نسبية الربط بين المعلومات ، أو نسبية الاستنباط ، بفعل مؤثرات ترجع إلى الملكات وتأثيرات النشأة والبيئة .

وينطبق ما قلناه في مجال المواقف العلمية للمستشرقين على تصريحات ومواقف رجال السياسة من أهل الغرب ، الذين يلحون على التسامح والتفاهم والحوار بين الثقافات والحضارات ، فهؤلاء ينطلقون من الاعتراف بالجوانب التي يروها حسنة في حضارات الآخرين ، فإذا جاؤوا على ذكر المسائل التي لا يروها – بموازينهم – صوابا .. إذا هم يهجمون على المخالفين مسفهين جوانب حضارتهم .. من غير أن يتركوا لنسبية الفهم مجالاً للحوار والبحث عن الأفضل والأقوم ، وهذا باب من أبواب القهر السياسي .. أين هذا من منهج القرآن مع المخالفين الذين حكم بخطئهم من أهل الكتاب ؟ وذلك في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

ويظهر من كلام ومواقف عامة السياسيين المعتدلين من أهل الغرب أنهم ما يزالون في عدد من القضايا الكبرى أسرى « الذاكرة التاريخية » و « المذهب الفكري المعاصر » و « المصالح الحيوية لبلدانهم » سواء شعروا بهذه المؤثرات أم لا .

لقد قدّم المستشرقون المنصفون خدماتٍ جليلةً في التعريف بعدد من حقائق الإسلام ، ورسخوا بطريقتهم أخلاقيةً منفتحة منصفة .. سواء أصابوا أم أخطأوا .. ففي عُرفنا : « **ليس من طلب الحق فأخطأه .. كمن طلب الباطل فأدركه** » . فهؤلاء يستحقون الثناء والتفهُّم لما يصدر عنهم من قصور في البحث .

ماذا نريد من طرح هذا الموضوع ؟

نريد أن يكون واضحاً أننا نرحب بالمبادرات العلمية المنصفة ، وبالمواقف السياسية التي تتسم بالدعوة إلى التفاهم بين الثقافات ، ونأمل أن نرى في قابل الأيام انتصاراً لفكرة الحوار والتسامح، واندحاراً لفكرة الانغلاق على الذات والتعصب .. ونتطلع إلى ترجمة صادقة للمبادئ الراقية .. وإلى أن يحلَّ السلام محلَّ الخصام .. والاحترام مكان الاستعلاء والازدراء .. والتعاون على ما فيه خير البشر بدلاً من التقاطع والتدابر والسعي في إهلاك الحرث والنسل .

وندعو المسلمين خاصة إلى ترجمة صادقة شاملة لقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ ... وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

دعوة معتدلي الغرب إلى الاعتدال

ترتفع في هذه المرحلة التاريخية أصوات في الغرب تدعو إلى التسامح والتفاهم والحوار بين الثقافات والحضارات .. ويركز الناحون هذا المنحى على ضرورة احترام الإسلام بشكل خاص.. وعلى وجوب الابتعاد عن الوقوع في أحابيل من يقرعون طبول الحرب ، ويحاولون طرح الإسلام عدواً قديماً جديداً !!

ولا يخفي الداعون إلى التسامح والحوار مع « الثقافة الإسلامية » أنهم يعنون بذلك : التسامح تجاه الجوانب التي يرونها – بموازينهم – مقبولة ، أو يصح السكوت عنها !! . فهم يتسامحون في مجال العقيدة القلبية ، والشعائر التعبدية ، والقيم الأخلاقية الفردية ، ويرفضون بشدة « الشريعة » .. ويستنكرون الشرائع الواجبة التطبيق حتى على المستوى الفردي !! .

والمدقق في خلفيات معظم هؤلاء الذين يوصفون بالاعتدال – على قلتهم في مجال الفكر والثقافة والسياسة – فإنه يلمس بوضوح أنهم ما يزالون أسرى :

- **الذاكرة التاريخية .**
- **والمذهب العلماني .**
- **ومصالح بلدانهم** .. التي قد تختل إذا تغيرت الترتيبات التي فرضها أصحاب المصالح في الغرب على الشعوب المستضعفة .

وتكمن خطورة هؤلاء المعتدلين في تغليف رفضهم للجانب التشريعي في الإسلام بزعمهم أنه يتناقض مع « حقوق الإنسان » ومع « التطور الفكري والتشريعي للإنسان المتمدن » !! .

إنهم – على سبيل المثال – يهجمون على ما يسمونه « **الإسلام السياسي** » ويرمونه بأشنع مصطلحات التنفير والمحاصرة والضغط .. زاعمين أن الدولة الدينية تسحق الثقافات الأخرى ، ولا تعترف بالتعددية الحزبية ، ولا تبيح المعارضة السياسية !! .. وهذا يتناقض مع حقوق الإنسان الأساسية !! .

وسنشير إشارات لطيفة خفيفة تفند هذه المزاعم .. وتوضح أن هناك مساحات كثيرة هي محل حوار بين الغرب والإسلام .. وأن لدى الإسلام ما ينبغي أن يستمعوا إليه . وها نحن نصوغ هذه الإشارات في صورة سؤال وجواب :

أولاً : هل يسمح الإسلام بالتعددية الثقافية في دولته ؟

الجواب : نعم ، وبشروط موضوعية ، فإن مما تواضع عليه البشر أن كل أمة تحتاج إلى إطار ثقافي تضبط حياتها الجماعية وفق مقرراته ، وتحدد به هويتها بين الأمم ، وهذا الإطار يطلق عليه في عصرنا « **الدستور الأساسي** » الذي ينص على مميزات الأمة تعريفاً ، ولساناً ، ونظاماً ، وتستمد مؤسسات المجتمع تشريعاتها من الدستور ، فتُلتزم بها جميع « المواطنين » و « المقيمين » و « العابرين » بصرف النظر عن هويتهم الثقافية .

ولقد أقر الإسلام التعددية الثقافية في إطار أمة ودولة ؛ فألزم كل من يعيش في دولة الإسلام بالنظم العامة للمجتمع ، وترك لكل ثقافة إطارها الخاص ، ووضع تشريعات تضمن ذلك .. بل إن القرآن – على سبيل المثال – قد سجل آراء غير المسلمين واعتراضاتهم واتهاماتهم .. وتهكماتهم .. ولنأخذ مثلاً على ذلك أهل الكتاب « اليهود والنصارى » :

١- لقد أعلن الإسلام رفضه لعقائدهم .. مبيناً أنها قد حُرِّفت عن أصلها الذي يتفق مع عقيدة التوحيد .. ورفض تبعاً لذلك التغييرات التي أحدثوها في مجال التشريع .

٢- ومع ذلك فقد اعترف بوجودهم في الدولة ، ووضع تشريعات تضمن لهم حرية الاعتقاد والعبادة وممارسة حياتهم الخاصة وفق ما يرونه ، بل خصهم بمعاملة مميزة فأباح الزواج من الكتابيات ، وأذن بأكل ذبائحهم ، وأمر بمجادلتهم بالتي هي أحسن .

٣- ولم يُلزمهم في النطاق المشترك داخل المجتمع إلا بالتشريعات القانونية التي يُطالَب بها كلُّ من يعيش داخل الدولة .. بصرف النظر عن ثقافته ودينه وعرقه .

وها هو تاريخ الإسلام مع الثقافات الأخرى خير شاهد على هذا الذي نقول .. ويراه كل الناس ماثِلاً إلى يومنا هذا في أقطار العالم الإسلامي ؛ فها هي معابدهم ما تزال قائمة وثقافاتهم تتناقلها الأجيال .

أما الغرب .. فإنه في ماضيات الأيام لم يعرف التعددية المذهبية فضلاً عن التعددية الثقافية والدينية .. وعلى الرغم من التحولات الفكرية الكبيرة التي جرت في داخله .. فإنه ما يزال عاجزاً في معظم أقطاره عن إرساء قواعد التعددية الثقافية .. في ظل وجود الأقليات المسلمة التي أصبحت جزءاً من نسيجه الاجتماعي .. وها هو يقف حائراً بين شعاراته ودساتيره المبيحة للتعددية الثقافية وبين رواسبه التاريخية ومخاوفه المستقبلية – غير المبررة – من تأثير الفكر الإسلامي على بنيته الثقافية الحالية !! .

ثانياً : هل يسمح الإسلام بوجود معارضة سياسية في نظامه ؟

الجواب : نعم ، وبشروط تجعل هذا المصطلح « المعارضة » إيجابياً ، فالإسلام حين يفرض على المسلمين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. فإنه يربي فيهم الشعور بالأخطار التي تهدد الأفراد والمجتمعات بسبب الجهل أو الهوى أو الانحراف .. ويأمر بالمبادرة إلى التذكير بالمصالح وإلى التحذير من المفاسد .. بل اعتبر الإسلام مبدأ النصيحة هو الدين .. وبيَّن أنها تشمل « **أئمة المسلمين وعامتهم** » .

فالمعارضة في نظر الإسلام ليست حقاً فحسب .. بل هي واجب يُسأل عنه المرء القادر يوم القيامة .. وهي عبارة عن رقابة اجتماعية على تصرفات من يحملون مسؤولية عامة ، بصرف النظر عن شكل المعارضة التنظمي . ودور المعارضة في الإسلام : إن رأت خيراً دعمته ، وإن لمست اعوجاجاً قوَّمته ، وإن وقفت على شر قاومته .

والمعارضة ليست للمبدأ وإنما للخيارات الاجتهادية والانحرافات .. وهذا ما يقول به الذين يرفعون أصواتهم بإباحة حق المعارضة السياسية من دول الغرب « الديمقراطية » .. فإنهم يشترطون أن تكون المعارضة ضمن الدستور وملتزمة بقوانين المجتمع ..

ثالثاً : هل يبيح الإسلام التعددية الحزبية ؟

الجواب : التعددية الحزبية وسيلة وليست غاية ، والوسائل تباح وتمنع – عند المسلمين وعند غيرهم – بنتائجها .. وبما أن الإسلام يعترف بالتعددية الثقافية ، ويفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة « المعارضة » ، فإنه لا يرفض تنظيم قوى المجتمع بطريقة تحقق المصالح وتدرأ المفاسد .. في إطار مرجعية عليا يرجع إليها الجميع ولا يقومون بأي عمل يناقضها .

وهذا ما تلتزم به الدول الغربية التي تبيح التعددية وتزعم أنها من إنجازاتها ، فهذه الدول تمنع – على سبيل المثال – قيام أحزاب ترفض النظام الحر « الديمقراطي » أو تتبنى أفكاراً يحرمها الدستور كـ « العنصرية » مثل : النازية .

نصل من هذه الإشـــارات بخصوص « التعددية الثقافية » و « المعارضة السياسية » و « التعددية الحزبية » إلى التأكيد على أمور هامة ، ونأمل أن يلتفت إليهما رجال السياسة والفكر في الغرب :

١- إننا نتطلع إلى أن يستوعب المعتدلون في الغرب أن الإنصاف يقتضي بأن ينظروا إلى الإسلام كما هو .. وأن يتحاوروا مع المسلمين على أساس أن دينهم منهج حياة يرمي إلى تحقيق غاية االوجود الإنساني . ونأمل أن يكفّوا عن اعتبار الذين ينطلقون من موقف العداء للإسلام مرجعاً أساسياً للتعرف من خلالهم على الفكر الإسلامي .. سواء كان هؤلاء من أبناء الغرب « المستشرقين » أم من أبناء المسلمين المتغربين فكراً وسلوكاً وتشريعا .

٢- ومن العدل ألا ينظر المعتدلون إلى إنجازات نظامهم الحياتي على أنه لا يوجد خارجها صواب .. لأن النظرة التي تلغي ما عند الآخرين .. ولا تستعد لدراسته والاستفادة منه .. إنما تعبر عن نظرة غرور واستعلاء .. وتمثل صورة من ظاهرة « الإرهاب الفكري »الذي يمارسه ساسة في الغرب وبعض نخبه اليوم في أرجاء المعمورة عن طريق فرض نموذجهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتشريعي ..

٣- وندعو المسلمين الذين دخلوا في علاقات حوارية مع مثقفين غربيين ، أو جهات سياسية ، إلى التعريف بالإسلام كما أنزله الله عزَّ وجلَّ .. ونحذرهم من الأغلال التي تلقيها وسائل التأثير المتعددة .. الرامية إلى زرع فكرة « الإيمان ببعض الكتاب والكفر – عملياً – ببعض » وأن يتذكروا أن من الخير للبشرية أن تتعرف إلى الإسلام بشموله .. لعلها تستفيد من تشريعاته في التخفيف من مآسي التشريعات الإنسانية القاصرة .

٤- وأخيراً .. فنحن ندعو الغربيين المعتدلين إلى دعم خصوصيات الثقافات الأخرى ، وأول خطوة في هذا الطريق : الاعتراف بوجود ثقافات غير ثقافتهم ، وأن من حق أصحاب هذه الثقافات أن يتمسكوا بها ، وأن يقدموها للناس بصورة جيدة لعلهم يفيدون منها ، وأن المطلوب من الجميع – في مجتمعات متعددة الثقافة – أن يتواصلوا ويتحاوروا لدرء المفاسد عن الجميع وجلب المصالح للكافة .

هل التخويف من المسلمين جديد وعفوي ؟

يمتد تاريخ الاحتكاك الدائم بين العالم الإسلامي والغرب فترة تربو على أربعة عشر قرناً ، وشهد التواصل بين العالمين أيام شدة ورخاء ، وكان يؤمل أن يحمل عصر الاتصالات بشارات الخير والتعاون على ما فيه مصلحة الجميع ، ويؤسفنا أن الحروب والحالة الاستعمارية الغربية قد أفرزت مواقف سلبية تحتاج إلى مراجعة ، ويؤلمنا أن تكون الصورة السيئة التي تُبث عن الإسلام والمسلمين من صنع قادة غربيين سياسيين ، وبعض رجال الدين ، وأن تكون أدواتهم الحركة الاستشراقية ومراكز البحوث الاستراتيجية ، وسنسلط في السطور القادمة بعض الضوء على هذه العلاقة المتوترة ، وسنبين رأينا في الموضوع .

يجسد العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي في هذه المرحلة فريقان :

الأول : أصحاب القرار السياسي والاقتصادي والثقافي في الغرب ؛ الذين يسعون إلى تحقيق مصالحهم بعنف ودهاء كبير .

الثاني : حركات وتيارات شعبية تتبنى ؛ تحرير العالم الإسلامي من التبعية ، والنهوض بالمسلمين ليأخذوا دورهم الطبيعي في صناعة التاريخ البشري .

أما شعوب الغرب .. فغالبيتها منقادة للقوى المتنفذة ، التي تتبنى استخدام القوة في تعاملها مع العالم الإسلامي ، والتي تضع يدها على وسائل تأثير بارعة وإمكانات هائلة .

وهناك أفراد وتيارات ومؤسسات في المنظومة الغربية ترى مخاطر ما يختاره ساسة واقتصاديون عند تعاملهم مع المسلمين ، فينتقدون ويحذرون ويتظاهرون ؛ تعبيراً عن رؤيتهم الإنسانية ، وحماية للعالم من صراع رهيب .

وأما غالبية شعوب العالم الإسلامي .. فإنها تشعر بالظلم الفظيع الذي توقعه قوى غربية على الإنسان المسلم ، وترى الدليل تلو الدليل على **السلوك النفعي** ، **والنهبي** ، **والعنفي** الذي تصطبغ به السياسة الغربية حيال العالم الإسلامي ، وهناك فئة ممثلة – غالباً – بأنظمة الحكم وبتيارات متغربة .. لا تقف عاجزة فتُعْذَر ، ولكنها تسعى لتقييد وتصفية حركات التغيير والتحرير ، وكأنه مطلوب منها أن تفعل ذلك .

والعجيب الغريب أن تصرّ قوى الاستغلال الغربية وأتباعها على منع محاولات فهم أسباب

وبواعث المواجهة الساخنة ، ويتحسسون كثيراً من تقرير حقيقية كبرى ، هي : **إن على أصحاب القرار في الغرب أن يكفّوا عن التدخل السافر والخفي في شؤون المسلمين ، وأن يتوقفوا عن نهب ثرواتهم ، وأن يتخلوا عن سياسة حراسة التخلف والتجزئة التي فُرضت على معظم أرجاء العالم الإسلامي من قبل القوى الغربية في الحقبة الاستعمارية .**

ويؤسفنا أن يرفع ساسة غربيون سيف الاتهام زاعمين : «**إن الذين يبررون العنف والإرهاب بما يفعله ساسة غربيون وأعوانهم ، إنما يعلنون عن تأييدهم للظاهرة الإرهابية**» وهؤلاء الساسة يريدون بذلك : إذا تكلم صاحب رأي فعليه أن يؤيد ما يصنعون ، أو يسكت ، فإذا رأى غير ما يرون قالوا كما قال فرعون من قبل : « ... **مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ**» !! [غافر: ٢٩] .

ولا يخفى على لبيب أن في الغرب سياسيين ومفكرين ينفخون في نار الفتنة ، ويثيرون قضايا تستدعي الشحناء ، وأذكِّر ببعض الأمثلة ، وهي ليست رد فعل لما حدث في أمريكا يوم ١١/٠٩/٢٠٠١م ، بل ترجع هذه العينة إلى تواريخ سابقة كما سنذكر :

١- **ريتشارد نيكسون** : الرئيس الأمريكي الأسبق ، يزعم في كتابه «**الفرصة السانحة**» :
«إن الإسلام والغرب متضادان ، وإن نظرة الإسلام للعالم تقسمه إلى قسمين : (دار الإسلام) و (دار الحرب) حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية ، **وأن المسلمين يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب ، وعلى الغرب أن يتحد مع الاتحاد السوفييتي** (قبل تفككه) **ليواجه هذا الخطر الداهم بسياسة واحدة**» .

٢- **الكاردينال بول بوبار** : مساعد بابا الفاتيكان السابق ، ومسؤول المجلس الفاتيكاني للثقافة، يقول في تصريح لصحيفة «الفيجارو» الفرنسية ، ونشرته جريدة «الشرق الأوسط» بتاريخ ٠١/١٠/١٩٩٩م :
«**إن الإسلام يشكل تحدياً لأوروبا وللغرب عموماً** ، وإن المرء لا يحتاج إلى أن يكون خبيراً ضليعاً لكي يلاحظ تفاوتاً متزايداً بين معدلات النمو السكاني في أنحاء معينة من العالم ؛ ففي البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النمو السكاني بشكل تدريجي ، بينما يحدث العكس في البلدان الإسلامية النامية ، وفي مهد المسيح يتساءل المسيحيون بقلق عما سيحمله لهم الغد ، وعما إذا كان موتهم لم يكن مبرمجاً بشكل ما .. **إن التحدي الذي يشكله الإسلام يكمن في أنه دينٌ وثقافةٌ ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف ، في حين أن المسيحيين في أوروبا يميلون إلى تهميش الكنيسة أمام المجتمع**» .

٣- **جياني ديميكليس** : رئيس المجلس الوزاري الأوروبي . في مطلع التسعينات من القرن الماضي ، في مقابلة مع مجلة «**النيوزويك**» في ٠٢/٠٧/١٩٩٠م :

- **نيوزويك** : ما مبررات بقاء حلف الأطلنطي – الناتو– بعد زوال المواجهة بين الغرب الليبرالي والمعسكر الذي كان اشتراكيا ؟

- **جياني** : صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة ، إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها بين العالم الغربي والعالم الإسلامي .

- **نيوزويك** : وكيف يمكن تجنب تلك المواجهة المحتملة ؟

- **جياني** : ينبغي أن تحل أوروبا مشاكلها ، ليصبح النموذجُ الغربي أكثر جاذبية وقبولاً من جانب الآخرين في مختلف أنحاء العالم ، **وإذا فشلنا في تعميم ذلك النموذج الغربي ، فإن العالم سيصبح مكاناً في منتهى الخطورة**» .

هذه الأمثلة التي سقتها غيضٌ من فيض من الكتب والدراسات الموجهة والتصريحات التي تنال من الإسلام والمسلمين ، وتستعدي الشعوب الغربية ، وتشحن النفوس بالكراهية والخوف والبغضاء ، وتقوم مراكز ومؤسسات الدراسات الاستراتيجية –والتي انتشرت في أمريكا وأوروبا انتشار النار في الهشيم– بدور رهيب ، حيث تبثّ العداوة والبغضاء باسم البحث والدراسة التي ينهض بها فريق من المختصين ، ونضرب مثالاً على الدور المريب لهذه المراكز بمؤسسة «راند» :

تقرير مؤسسة راند !!

في عام ٢٠٠٤م نشرت مؤسسة (راند) تقريراً عن الشرق الأوسط في ٣٤٥ صفحة من القطع الكبير .. وقد كان له دويّ واسع في الأوساط الفكرية والسياسية .. ويرجع ذلك إلى :

- **مضمونه** (من حيث الشمول والتفاصيل)
- **رؤيته المستقبلية**
- **مكانة المؤسسة التي صدر عنها التقرير**
- **الجهة التي طلبت التقرير** : حيث كُتب على صفحة الغلاف (أُعد لحساب السلاح الجوي للولايات المتحدة) .

فما هو عنوان التقرير ؟

إنه : «**مستقبل البيئة الأمنية في الشرق الأوسط : النـــزاع ، والاستقرار ، والتغيير السياسي**» .

أما مؤســـسة راند ؟ فالمعلومات المتاحة تصفها بأنها مركز للبحوث والتطوير مُمَول من الحكومة الأمريكية الفيدرالية ، لإجراء الدراسات والتحليلات ، ويضع جُلّ جهده في خدمة المؤسسة العسكرية .

ماذا يقول التقرير ؟

- يبدأ التقرير بتحديد المصالح الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط ، وهي :

- **مواجهة الإرهاب .**
- **التصدي لأسلحة الدمار الشامل .**
- **الحفاظ على إمدادات وأسعار مستقرة للنفط .**
- **تأمين استقرار نظم الحكم الصديقة .**
- **دعم الديمقراطية وحقوق الإنسان .**

وبناء على تحديد «**المصالح**» يحدد التقرير «**التهديدات**» :

- احتمالات قوية وظاهرة للعدوان والمواجهة بين دول المنطقة بسبب التوترات الموجودة الآن والمتوقعة في المستقبل .
- انهيار عملية السلام (العربية-الإسرائيلية) !!
- انتشار أسلحة الدمار الشامل .
- خطر تصدير إرهاب الشرق الأوسط إلى العالم .
- القلاقل الداخلية المتوقعة نتيجة تغييرات فكرية واجتماعية وسكانية واقتصادية وسياسية تشهدها المنطقة .

ويقول التقرير صراحة :

إن «عدم الاستقرار السياسي في الشرق الأوسط يمكن أن تكون له عواقب وخيمة بالنسبة للولايات المتحدة . فقد لعب الشرق الأوسط -منذ هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١م- دوراً أكثر بروزاً في السياسة الأمريكية من أي وقت مضى ، فالولايات المتحدة تعتمد على شركاء شرق أوسطيين كإسرائيل والعربية السعودية وقطر ومصر وغيرها في محاربة الإرهاب ، ووقف انتشار

أسلحة الدمار الشامل من جانب الدول المارقة .. وبالنظر إلى اعتماد الغرب على نفط الشرق الأوسط فإن اهتزاز الاستقرار السياسي في المنطقة يمكن أن يضر بالاقتصادات في أنحاء العالم» .

وبعد تحديد «المصالح» و «التهديدات» فإن واضعي التقرير يرون بوضوح أن الاتجاهات التي تبرز في المنطقة ستزيد من احتمال زعزعة الاستقرار ، ولمواجهة التهديدات فإنهم ينصحون بالآتي :

- **لبرلة المنطقة** : إضفاء طابع متحرر وبطء .
- **دمقرطة المنطقة** : إشاعة الديمقراطية .

ويبدي التقرير تخوفاً كبيراً إذا وقعت تغييرات غير منضبطة أمريكياً !! من ذلك :

- **الخوف من بروز قيادات جديدة تشعر بضرورة تبني سياسات شعبية ، والتخلي عن السياسات التي يرفضها الحس الشعبي** ، مثل (دعم تنازلات عربية لإسرائيل في المفاوضات - والتعاون مع أمريكا لمواجهة الإرهاب ..)
- **الخوف من التناقض بين «الإصلاح الليبرالي الديمقراطي» و «مصالح حكام المنطقة»** .
- **الخوف من تطوير وانتشار أسلحة الدمار الشامل** ، لأنه قد يستخدم ضد إسرائيل والأمريكيين في المنطقة ، وربما شكل تهديداً لأمريكا في عقر دارها .
- **الخوف على أمن إسرائيل** .

ويخصص التقرير مساحات واسعة لدراسة دول معينة واحتمالات التغيير فيها ، ونشير هنا إلى الحالة السعودية ؛ إذ يؤكد التقرير على الآتي :

- **الوضع السياسي** في السعودية هش .
- **تحديد العلاقة مع أمريكا فيها خصام كبير بين الحكام والمحكومين ؟**
- **الإسلاميون السعوديون** موجودون في الدولة والمجتمع ولهم رؤيتهم لما يجري في المنطقة .

وهذا الوضع يفرض على أمريكا :

- **الاستعداد للمفاجآت .**
- **العمل على تغيير البنية الثقافية .**
- **عدم إهمال استخدام القوة لإحداث زلازل فكرية وتوليد رؤى تفاهمية.**
- **الإسراع في إعادة إعمار العراق .**
- **السعي إلى حلٍّ ما للصراع مع إسرائيل .**

وبعد :

فهل بعد هذا المثل الصارخ في الإثارة والعدوانية ، واستباحة الأرض ، والثروات ، والثقافة ، والدين ، والقيم .. يوجد من يشك في أن قوى التسلط الغربي هي التي تثير الزوابع ، وتفجر العلاقات ، وتعمل على تصوير الإسلام والمسلمين بشكل مخيف ومقزز ، وتصر على أن يكون الإسلام عدواً لكي تبقى الشعوب الغربية مؤيدة لسياسات تلك القوى ، ومقتنعة بضرورة تطوير آلات الدمار التقليدية والشاملة، وبذلك تزدهر صناعة الأسلحة ، والتي لا تعني إلا مزيداً من الفتك والدمار؟.

وعلى الرغم من قتامة صورة الغرب في هذه المرحلة لدى غالبية المسلمين ، إلا أن علينا أن نشير إلى وجود ضمائر حرة وأصوات منصفة ؛ تدين العدوان ، وتنادي بوجوب تسمية الأمور بأسمائها ، ومن هؤلاء السيدة الباحثة «سوزان نيكول» التي كتبت موضوعاً وزعته عبر الإنترنيت في ١٣/٠٧/٢٠٠٥م تقول فيه :

«الأمريكيون يساعدون بلادهم ضد الإرهاب لو عرفوا الجواب الحقيقي عن السؤال : (لماذا يكرهوننا ؟) . إن العرب والمسلمين يقولون للغرب باستمرار السبب الحقيقي ، إلا أن الغرب لا يسمع . يجب علينا الاعتراف بتحيّزنا على امتداد نصف قرن ضد العرب والشعوب الإسلامية الأخرى ، لقد أوجدنا سبب عدائهم لنا ، فنحن ، وليسوا هم ، الذين بدأنا صراع الحضارات المريع الذي سنواجهه في الجيل القادم أو أكثر» .

ونحن المسلمين علينا أن نرفع أصواتنا محذرين من نشر ثقافة الشحناء والبغضاء ، وعلينا أن نأخذ على أيدي من يسيؤون الفهم والعمل ، وأن نمد أيدينا إلى المنصفين والمعتدلين من الغربيين ، وأن نبني معهم جسور التعارف والتعاون على ما فيه خير الإنسان في كل مكان ، وليكن شعارنا قول الله تعالى :

﴿ ... **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ... ﴾ [المائدة: ٢] .

الاستشراق وأثره في الفكر والسياسة

ما هو الاستشراق ؟

الاستشراق : عبارة عن تيار علمي فكري سياسي اقتصادي غربي النشأة ، يهتم بدراسة حضارات الشرق وأديانه وثقافاته وتاريخه ولغاته وآدابه وعاداته وتقاليده ، ويحاول التعرف إلى كل ما يمت بصلة إلى الشرق ، وبخاصة العالم الإسلامي .

- والهدف من هذه الدراسات هو : الإسهام في بلورة وصياغة المواقف والتصرفات الغربية تجاه الشرق .

- لا تعرف بداية زمنية للاستشراق يصح التعويل عليها ، ويشير عدد من الباحثين إلى أن مفهوم « الاستشراق » قد انتشر في أوروبا الاستعمارية مع نهاية القرن الثامن عشر ، علماً بأن الاهتمام بالتراث الشرقي « الإسلامي » قد بدأ منذ ظهور الإسلام ، وكانت البدايات محاولات لفهم الإسلام وطريقة انتشاره ، ثم تطور الأمر إلى ترجمة الكتب من اللغة العربية ، وبخاصة في مجال العلوم الطبيعية كالطب والرياضيات والفلك ، ثم توسعت الدراسات ، وتعددت الاهتمامات ، وتنوعت الاختصاصات وفقاً للحاجة التي تدعو إليها – في الأعم الأغلب – رغبة الساسة وأرباب المصالح ورجال الدين .

بواعث الاستشراق

درج مؤرخو الاستشراق من المسلمين على ذكر أربعة دوافع كانت وراء بروز الحركة الاستشراقية والإنفاق عليها بسخاء ، وهي :

① **الباعث الديني** : وكان يرمي إلى تحقيق هدفين :

الأول : تشكيك المسلمين بمبادئ الإسلام وقيمه وشريعته .

الثاني : حماية النصارى من التأثر بالفكرة الإسلامية عن طريق تراكم معلومات مقدَّمة بطريقة بعيدة عن الخطاب الديني ، وتتوشح بالعلمية والحياد .

② **الباعث السياسي** : ويهدف إلى أمرين :

الأول : الحصول على معلومات تمكِّن الساسة من تصور واقع الشرق ، فهذا شرط صحةٍ للتعامل الجاد مع شؤون العالم الإسلامي .

الثاني : كشف الثغرات التي يمكن الولوج منها إلى داخل حصون المسلمين .

③ **الباعث التجاري** : والقصد منه واضح ، ويتركَّز في ساحتين :

الأولى : معرفة الثروات ومواطنها والشعوب التي تحيط بها .

الثانية : تهيئة الأجواء لتصريف البضائع التي تنتجها مصانع أوروبا .

④ **الباعث العلمي** : والذين كانوا يتحركون بدوافع علمية بعيداً عن البواعث الدينية والسياسية والتجارية يشكلون رقماً محدوداً ، وهؤلاء كان لهم دور فيه إيجابيات، ومعظمهم أنصف الإسلام والمسلمين ، وإن كان بعضهم – على الرغم من إخلاصهم – لم يتحرروا كلياً من ثقافة بيئتهم ، فجاءت نتائجهم متأثرة برواسبها . وقاد البحثُ العلمي الخالص عدداً من الباحثين المستشرقين إلى اعتناق الإسلام والتفرغ للدعوة إليه وبيان حقائقه .

آثار الحركة الاستشراقية

كانت آثار المستشرقين خيراً في جانب وشراً في جانب آخر :

أما الآثار الإيجابية فنذكر منها :

– **نشر التراث الإسلامي** ، وجزء كبير منه نشر محققاً ، وقد ساعدهم على ذلك انتشار الطباعة ، ووضع أوروبا يدها على كمية هائلة من مخطوطات العالم الإسلامي ، ونقلها إلى مكتباتها !!

– **تأليف الكتب حول الإسلام والحضارة الإسلامية والآداب** .. وكان لها دور ثقافي علمي ، على الرغم من المآخذ على عدد كبير منها ، مثل : « دائرة المعارف الإسلامية » و « المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي » ، و « تاريخ الأدب العربي » .. ويُذكر أن الكتب التي أُلفت عن الإسلام والمسلمين والحضارة الإسلامية منذ أوائل القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين قد تجاوزت الستين ألف مؤلَّف .

وأما الآثار السلبية فحدث عنها ولا حرج ، ويأتي في مقدمتها :

– **التشكيك بالوحي** ، والزعم بأن القرآن من تأليف محمد ﷺ ، وأنه استمد مادته الأصلية من المصادر اليهودية والنصرانية ..

- **الطعن بالشريعة وأصالة الفقه الإسلامي** ، والقول بأن أصوله رومانية !!

- **إحياء النعرات القومية** بهدف تفتيت الأمة .

المستشرقون المعاصرون

ما تزال الحركة الاستشراقية في ازدهار ، لأن الحكومات والمؤسسات الاقتصادية والمراجع الدينية في الغرب تنفق على مراكز البحث الاستشراقي في الجامعات وغيرها بسخاء منقطع النظير ، واللافت للنظر أن ظاهرة جديدة قد برزت في ساحة الاستشراق ، وهي التي تتعلق بالمستشرقين الجدد الذين أقاموا صروحاً جديدة لدراسة الشرق باسم « مراكز البحوث الاستراتيجية » ، ولا يخفي عدد منهم تعامله المباشر مع أصحاب القرار السياسي والاقتصادي ، بل إن عدداً من هذه المؤسسات قد أُقيمت في البلاد الإسلامية ، وأُسندت مهامها إلى أفراد من أبناء المسلمين !! .

وسأضرب مثالين عن المستشرقين الجدد . ومنهما يظهر دور مؤسسات الاستشراق في الفكر والسياسة :

❶ **الأصولية في العالم العربي** : عنوان كتاب نشره ريتشارد هرير دكمجيان – وهو أمريكي من أصل سوري أرمني – عام ١٩٨٤م وقام بترجمته إلى العربية والتعليق عليه عبد الوارث سعيد . وفي مقدمة الكتاب يقول ريتشارد : « شهد العقد الأخير – السبعينات – زيادة في الوعي الإسلامي وعمقه في المجتمعات الإسلامية في كل أنحاء العالم ، **وكانت مظاهر انبعاث الروح الإسلامي روحية واجتماعية واقتصادية وسياسية في آن واحد** .

وكما حدث في القرون الماضية ، كانت أسمى ملامح الانبعاث المعاصر هي العودة إلى الجذور الإسلامية – إلى أصول العقيدة – كما تلقاها وحياً وطبقها النبي محمد ﷺ .

إن أول ما تهتم به هذه الدراسة هو اختيار الجذور والأنماط التاريخية للانبعاث الإسلامي ثم الأشكال التي ظهر بها في إطار أزمة المجتمع الإسلامي المعاصر ..

اعتمدت الدراسة ، قدر الإمكان ، على المصادر العربية الأصيلة ، ومن بينها كثير من المنشورات السرية والنشرات والرسائل ، كما أنها تقدم بعض الدلائل الواقعية على الحركة الأصولية من خلال تحليل إحدى وتسعين جمعية أو جماعة إسلامية ، قام بجمع المادة العاملون في « مركز هيئة البحث والتنمية » . هذه الدراسة التي بدأت على شكل تقرير لحكومة الولايات المتحدة ، أُعيد فيها النظر ووُسِّعت بشكل كبير لتشمل إطاراً للعمل شاملاً وتحليلياً ، وتضم معطيات جديدة عن

التطورات الأخيرة في المنطقة العربية » (ص : ١٣) .

وفي بحث « الأهداف التحليلية » التي ترمي إليها الدراسة يقول ريتشارد :

« تستهدف هذه الدراسة جمع وجهات النظر الإسلامية والغربية وغيرها حول الأصولية الإسلامية ، للوصول إلى فهم متوازن لمظاهرها في العالم العربي ، ومن أجل هذه الغاية توزَّعُ البحثُ على نطاق واسع ليشمل : **العوامل التاريخية ، والدينية ، والنفسية ، والسياسية ، والاجتماعية والاقتصادية التي تؤثر في الظاهرة الأصولية .**

وسوف يركِّز التحليل على فحص أحد عشر موضوعاً بارزاً :

١- المرتكزات الدينية والتاريخية للأصولية الإسلامية وأنماطها الدورية .

٢- بواعث الأصولية الإسلامية المعاصرة .

٣- التركيبة الاجتماعية والنفسية للفرد الأصولي .

٤- عناصر المذهبية « الأيديولوجية » للأصولية الإسلامية .

٥- أساليب وأهداف الدعوة الإسلامية المذهبية (الأيديولوجية) .

٦- مؤشرات السلوك الأصولي .

٧- تصنيف إحدى وتسعين جماعة أصولية .

٨- قيادة الحركات الإسلامية .

٩- ردود فعل الدول تجاه الأصولية .

١٠- التطورات المتوقعة للحركات الأصولية في ظروف العرب المتضاربة .

١١- الأصولية الإسلامية كتحدٍ للمصالح الأمريكية » (ص : ٢٣) .

وبعد جولات في المجالات التي ذكرها ريتشارد يصل إلى القسم الثالث من الكتاب، وهو بعنوان : « الأصولية الإسلامية : النتائج والتوقعات » ونبرز منه هنا ما ذُكر تحت عنوان : « الأصولية الإسلامية ومصالح الولايات المتحدة » ، يقول ريتشارد :

« ترى النظرة الأصولية أن ثمة ثوابت معينة في السياسة الخارجية الأمريكية تضع الولايات

المتحدة على طريق المصادمة مع الحركة الإسلامية ، وتشمل ثوابت هذه السياسة ما يأتي :

١- دعم الأنظمة العربية ذات التوجه العلماني بسبب توجهها الموالي لأمريكا.

٢- الدعم الفعلي غير المشروط لإسرائيل ، وهذا يطيل أمد الضعف العسكري العربي الذي يتزايد نتيجة الحضور العسكري الأمريكي في عدد من الدول العربية .

٣- الإصرار على سياسات اقتصادية تزيد من سوء توزيع الدخل في البلاد العربية .

٤- انتشار القيم وطرائق الحياة الغربية-الأمريكية التي تعتبر مخالفة للإسلام .

ليس ثمة احتمال أن يدخل في المستقبل المنظور تعديل ذو قيمة على المعتقدات الإسلامية السابقة، وعلى هذا ، فإن منطق الواقع يفترض الإصرار على استمرار الصراع بين مصالح الولايات المتحدة والأهداف الإسلامية » (ص: ٢٣٩-٢٤٠) .

وبعد أن يشير الكتاب إلى إمكانية تعديل النظرة العدائية ينصح المؤلف بما يراه مناسباً للاستراتيجية الأمريكية ، فيقول :

« إن هناك حاجة إلى إتباع خطين من السياسة كردود فعل قابلة للنمو تجاه الأصولية الإسلامية، من أجل حماية المصالح الحيوية للولايات المتحدة في المحيط الإسلامي- العربي :

١- تسوية سلمية للصراع العربي- الإسرائيلي ، تؤمِّن قيام كيان فلسطيني مع وجود إسلامي واضح في الأماكن المقدسة في القدس .

٢- تشجيع أمريكي واضح ودعم للإصلاحات الاجتماعية والسياسية ، خاصة في الدول الموالية لأمريكا ، للوصول إلى مستوى أعلى من العدالة الاجتماعية والاقتصادية ولحماية حقوق الإنسان .

إن إحراز تقدم ملموس في هذين البعدين من السياسة سوف يقوي إلى حد بعيد شرعية الصفوة الموالية لأمريكا .. وسوف يوجد جواً ملائماً لظهور نخبة إصلاحية» (ص : ٢٤٠) .

❷ **خالد دوران** : اسمه الأصلي « ديتليف هويسلر » يحمل الجنسية الألمانية ، درس الإسلاميات في هامبورج ، وزار عدداً من البلدان الإسلامية ، وعمل في معهد الاستشراق في مدينة هامبورج ، ثم انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليعمل خبيراً في شؤون الحركات الإسلامية لصالح جامعات واشنطن وفيلادلفيا . أصدر كتاباً بعنوان « الإسلام والتطرف السياسي » ومما امتاز به تهجمه على الحركات الإسلامية ، وغمزه بما يسميه « الإسلام السياسي » وهذا الذي جعله مرجعاً لدى جهات

أمنية أمريكية وأحزاب كارهة للمسلمين في الغرب !! .

قصة المركز الإسلامي في آخن مع دوران :

وقصة هذا المستشرق مع المركز الإسلامي في آخن تلقي الضوء على تيار من « الخبراء » الذين تلجأ إليهم مراكز القرار والإعلام الغربية في الحديث عن الإسلام والمسلمين ، وفي أخذ معلومات .

• في ١٩٨٧/٨/٧م وافق المجلس البلدي لمدينة آخن بالإجماع على بناء المركز الإسلامي الجديد ، وكان على المركز الإسلامي أن يطمئن إلى تقبل المدينة للمشروع ، وبخاصة سكان الحي الذي سيقام فيه البناء ، وبعد أن توفرت الشروط الاجتماعية بدأت رحلة وضع المخططات ، وهنا بدا لحزب « الخضر » وضع العصي في عجلات العربة ، فأعلن الحزب في بيان صحفي سحب موافقته على مشروع المركز الإسلامي الجديد معللاً ذلك بمعلومات وصلت إليه تشير إلى أن القائمين على المركز الإسلامي « متطرفون » !! .

• فجَّر موقف حزب الخضر في الائتلاف المسيطر على بلدية آخن مشكلة ، واقترحوا لزيادة المعلومات عن الإسلام والمسلمين تنظيمَ محاضرةٍ يدعى إليها خبير في الشؤون الإسلامية وواقع المسلمين ، فوقع اختيارهم على خالد دوران ، وكانت محاضرته يوم ١٩٩٠/١٠/١٦م رداً على سؤالين:

١- **هل الإسلام دين متطرف ؟**

٢- **فإذا كان الجواب : لا ، الإسلام دين عظيم .. فالسؤال هل المركز الإسلامي في آخن متطرف ؟**

وكان جواب المحاضر على النحو الآتي : ذكر أن الإسلام عقيدة وشريعة ، وأدخل في العقيدة الثوابت : (مسائل الإيمان ، والشعائر التعبدية ، والقيم الأخلاقية) وأثنى على هذا الجانب ، وعندما تحدث عن الشريعة تركز كلامه على الآتي :

- الشريعة عبارة عن الأحكام التي كانت جواباً على حوادث وقعت في زمن النبوة ، وجاءت متأثرة بالجزيرة العربية وبالتطور الاجتماعي والقانوني في تلك المرحلة .

- والمشكلة تكمن في أن علماء المسلمين رأوا أن تلك الأحكام واجبة التطبيق في كل زمان ومكان، وكان الأولى أن يتمسكوا بمقاصدها لا بصورها . وفي الشريعة أحكام لا تتلاءم مع التطور الإنساني ، لأن فيها (القتل ، والجلد ، والقطع ، والرجم ..) وهذه الأحكام تربي فيمن يرون وجوب تطبيقها قسوة وامتهاناً للإنسان !!

فالشريعة في نظر دوران متطرفة !!

وبناءً على ما سبق أكد دوران أن كل من يؤمن بتطبيق الشريعة لا شك أنه متطرف ، وبما أن المركز الإسلامي في آخن يؤمن بتطبيق الشريعة فهو متطرف !! .

كان رد المسلمين المشاركين في المحاضرة واضحاً حيث بينوا :

1- إن أهم ما يفخر به المسلمون كون الإسلام عقيدة وشريعة ، وأن الشريعة مصدر هام للأحكام البشرية باعتراف المؤسسات القانونية كمحكمة العدل الدولية .

٢- إن خطورة كلام دوران تكمن في كونه موجهاً لأناس ليست لديهم معرفة بالإسلام تمكنهم من تقدير مكانة "الخبراء" العلمية !! ومن يصح أن يؤخذ عنهم العلم ..

٣- إن الأحكام التي تجرأ دوران وأصدرها على الإسلام والمسلمين تنبع من ثقافته الغربية وموازينه التي تحتاج إلى حوار .

- في ١٩٩٣/٢/٢٦م وقعت حادثة تفجير في مركز التجارة العالمي بنيويورك ، ووجهت الاتهامات إلى مجموعة من المسلمين ، وفي ١٩٩٣/٤/٦م نشر خالد دوران مقالاً في صحيفة فرانكفورتر – ألجماينة حول الحادث ومن يقف وراءه ، وكان من جملة مزاعمه أن المركز الإسلامي في آخن ضالع في العملية ، لأن أحد المتهمين – محمود أبو حليمة – كان قد أقام في آخن ! ، وتم تحويل مبلغ من دوسلدورف إلى أحد المتهمين ، ويجزم بأن هذا المبلغ قد أرسل من طرف المركز الإسلامي في آخن .

رفع المركز الإسلامي في آخن الأمر إلى القضاء ووجِّهت الدعوة إلى خالد دوران عن طريق السفارة الألمانية بأمريكا لحضور المحاكمة ، ولكنه تجاهل الموضوع ، وفي ١٩٩٣/١٠/١٢م أصدرت المحكمة حكماً غيابياً بينت فيه عدم صحة ما ادعاه خالد دوران ، وفرضت عليه غرامة مالية ، ونص قرار الحكم على إيقاع العقوبة بدوران إذا عاد لمثلها ، وعلى وجوب نشر قرار المحكمة على نفقة المحكوم عليه.

- ودار الزمان دورة .. وهزت الدنيا تفجيرات نيويورك وواشنطن في ٢٠٠١/٩/١١م ، وتهيأت ظروف مثالية للخبراء .. فسارع الدكتور خالد دوران إلى تجديد هجومه على المركز الإسلامي في آخن ، وبخاصة عبر الانترنيت ، وحركت ادعاءاتُه مجموعة من مراسلي المحطات التلفزيونية الذين سارعوا إلى محاولة تشويه سمعة المركز الإسلامي والزعم بأنه موئل للتطرف والإرهاب !! .

والجدير بالذكر أن عدداً من المؤسسات الإسلامية في أمريكا خاضت معارك قضائية وإعلامية مع خالد دوران ، نظراً لاتهاماته وجرأته في تشويه صورة المسلمين .

من هذين المثالين عن المستشرقين المعاصرين يتضح أن هناك جيوشاً من المؤسسات والأفراد الذين نذروا أنفسهم لدراسة الإسلام وتفاعل المسلمين مع الواقع ، وأن عامتهم يقدمون خدمات

مباشرة وغير مباشرة للجهات التي تعمل على :

تشويه الإسلام والحط من المسلمين في عيون الغربيين ، والأهداف من هذا الهجوم واضحة !! .

- **صياغة صورة الشرق الإسلاميّ وفقاً لتوجهات الاستراتيجية المقررة لدى مراكز القوة في الغرب ، فصورة الشرق لدى الغربيين ينبغي أن تستجيب لمخططات السياسة الغربية ، كما يؤكد ذلك إدوارد سعيد في كتابه القيم « الاستشراق » .**

تزويد أصحاب القرار بالمعلومات والتحليلات والدراسات التي تمكنهم من رسم مخططات الاستغلال والإخضاع والهيمنة !!

هذا ، وإن تطور وسائل الرصد والمتابعة لتوحي بأن الفكرة الإسلامية تتجدد اليوم في حياة المسلمين ، وستكون خيراً وبركة على الناس أجمعين ، وعلى حملة رسالة الإسلام العظيم أن يتابعوا طريق الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عملاً بقول اللّه تعالى : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

ونأمل أن تتوقف حملات تشويه الإسلام والمسلمين ، وأن يعيد أصحاب القرار في الغرب النظر في مقاصدهم ، وأن يجنحوا إلى فهم صحيح للإسلام وتعامل كريم مع المسلمين .

مسلم الخدمة !

في آذار/مارس من عام ١٩٧٧م عقد في مدينة قرطبة الإسبانية المؤتمر الثاني للحوار المسيحي–الإسلامي! . وكان في عداد المدعوين ليمثلوا الجانب الإسلامي « أساتذة جامعات » ليسوا معروفين بالتزام إسلامي أو علم شرعي ، ومِثْلُهم يُصنَّف داخل البلاد الإسلامية في زمرة « المتغرِّبين » فكراً وسلوكاً ومنهجا! .

وقف أستاذ من هذه الفئة ليتحدث عن رسول الله ﷺ! ، وكان موضوعه بعنوان : « محمد ملتزماً » فجاء فيه بالعجب العجاب ، لقد صاغ موضوعه بأسلوب المقابلات الصحفية ، فتخيل أن صحفياً إسبانياً قام بإجراء مقابلة مع رسول الله ﷺ ، ومن خلال الحوار الذي أجراه ظهر أن الأستاذ المحاضر يرى أن الإسلام دين بشري ، القصد منه النهوض بالإنسان ، فمن أخذ به عاش في نعيم ، ومن أعرض عنه احترق في جحيم الدنيا !! .

هذه المحاضرة دفعت عدداً من المسلمين المشاركين في المؤتمر إلى الردّ على الدكتور المحاضر ، وكانت هذه الظاهرة ، والتي تكررت في المؤتمر ، كافية لتشويه صورة المسلمين وإظهارهم أمام أعين الآخرين في صورتين :

- **صورة مرنة ، منفتحة ، متطورة!**
- **وصورة تقليدية ، متشددة ، ترفض التطور!**

وكان كاتب هذه السطور ضمن مجموعة أنكرت على الجمعية المسيحية الإسلاميّة دعوتها غير المختصين ، والذين لا يعرف عنهم علم وتصديق بحقائق الدين ، إلى التحدث عن الإسلام في مثل هذا اللقاء ، الذي يحضره أناس ليست لديهم خلفية تساعدهم على التمييز بين كلام العالم والمتعالم ، أما الجانب المسيحي فكان ممثلاً برجال دين ، فكان جوابهم على النحو الآتي :

▪ حين جلسنا للتفكير في قائمة المدعوين للمحاضرة والحوار في المؤتمر ، سجلنا أسماء مجموعة من المعروفين في الدوائر الإسلامية ، وخاصة الرسمية منها .

▪ فاعترض علينا الأب « ... » قائلاً : إن هذه القائمة تضمّ الذين يعرضون الإسلام عرضاً تقليدياً ، وهؤلاء محبوسون بالنصوص ، ولا يرون جواز الخروج عنها ، وفي عصرنا أناس من المسلمين تنورت عقولهم وملكوا شجاعة في نقد ما عندهم ، وهم قادرون على تقديم صورة عن تطور الفكر الديني للمسلمين المعاصرين .

▪ وبعد أخذٍ وردٍّ أذعنت اللجنة لطلب الأب « ... » ، وقالت له : حسناً ، ومن هم الذين تقترحهم ؟ .

▪ فقال : لدينا أسماء كثيرة معروفة في دوائر الكنيسة ، وسأقدم إليكم قائمة أسماء مقترحة لمثل هذا اللقاء .

▪ قدّم الأب « ... » قائمته ، فوقع اختيارنا على « عدد من الأساتذة » باعتبارهم أقل من غيرهم إثارة واستغرابا .

فقلنا لهم : ما هي معاييركم في اختيار مثل هؤلاء ؟! .

قالوا : الحقيقة إن لدى الكنيسة قائمة تضمّ أسماء أشخاص يطلق عليهم بالفرنسية Musulman de Service ، وترجمتها « مسلم الخدمة » ، تنتدبهم لحضور لقاءات وإلقاء محاضرات عن الإسلام والمسلمين ، ثم ذكروا عدداً من الأسماء كأمثلة .

وكان في الحاضرين معنا أستاذ جامعي من مصر ، فلما سمع اسم رجل من بلده يُذكر ضمن الذين تعتبرهم الكنيسة « مسلم الخدمة » صاح مستغرباً : كيف هذا ؟! ، إن هذا رجل شيوعي ملحد !! .

فكان الجواب : نعم ، هذا في مصر شيوعي ملحد ، وقد تعتبرونه مرتداً عن الإسلام ، ولكنه من وجهة نظر الكنيسة يمثل صورة من صور تطور الفكر الإسلامي .

فقلنا : وأي إسلام يعبّر عنه رجل يحمل جرثومة التغريب في عقله ، ولا يمارس الإسلام في سلوكه ؟ ، وأين أمانتكم العلمية في البحث عن العلم عند أهله ؟ ، إن هؤلاء الذين تدعونهم « مسلم الخدمة » يمسخون الإسلام ويعبثون بقيمه وشرائعه ، وصنيعكم هذا يدفع المؤمنين بالإسلام إلى الاشمئزاز ، وإلى الشكِّ في نواياكم !! .

هذه القصة التي سقتها من مشاهداتي تتكرر في البلاد الغربية اليوم بصور متعددة ، ويأخذ بهذا الأسلوب في التعامل مع الإسلام والمسلمين أحزاب سياسية وجماعات دينية ، ويظهر هذا بوضوح أكبر حين ترغب جهة ما في محاصرة الدعاة الصالحين ، أو التشويش عليهم وعلى مشاريعهم الطيبة ، حيث تدعو الجهة الراغبة في التشويه والتشويش « مسلم الخدمة » إلى الكلام والكتابة وإلى المقابلات الصحفية والتلفزيونية ، وهؤلاء يتحدثون عن الإسلام والمسلمين بعقلية جاهلة وموازين غريبة عن الإسلام ، وتكون المعلومات والآراء التي يقدمونها بجهلهم أو حقدهم « حُجة » يستخدمها المغرضون

في الدعوة إلى مواقفهم المتشنجة ضدّ الإسلام والمسلمين !! .

إن هذا التصرّف يحمل في طياته موقفاً عدوانياً من المسلمين ، ولا يسهم في بناء الثقة ، ولا يسمح بالحوار الهادف والتعاون المثمر . وهذا ما يشعر به كثير من المسلمين الذي يعيشون في أوروبا على وجه الخصوص ، حيث كثر الكلام حول « مستقبل الإسلام في أوروبا » ، بل أصبح جليّاً أن هناك فئة تضمّ أحزاباً وتيارات دينية ترى وجوب التضييق على المشاريع الإسلامية لتحقيق هدفين :

الهدف الأول : منع المؤسسات الإسلامية من تطوير إمكاناتها :

وهذا يضعف مساهمتها في الحفاظ على الشخصية الإسلامية ، تمهيداً لدمج الأجيال الجديدة في بنية المجتمع الغربي – ويقصدون بذلك تذويب الشخصية الإسلامية – . فحرية الاعتقاد ، التي هي من الحقوق الأساسية للإنسان ، تعني عند هؤلاء انتماءاً بارداً ميتاً ، وهم يقبلون أن يحمل المسلم ، رجلاً كان أو امرأة ، اسماً إسلامياً ، مثل « عبد الله وفاطمة » ، أما مضمونه فيجب أن يكون غربياً ، فإذا تجاوز المسلم الانتماء الإسمي إلى العمل بالإسلام على مستواه الفردي وفي أسرته ، فإن الدنيا تقوم ولا تقعد ، وخاصة إذا حصل هذا في الأجيال الجديدة! .

الهدف الثاني : إيجاد حالة من الشعور بعدم الاطمئنان والاستقرار في صفوف المسلمين :

وهذا ربما أدى إلى تحقيق أمرين :

١- سعي المتدينين إلى العودة من حيث أتوا ، فإن حصل هذا فقدت المؤسسات الدينية عدداً من مؤسسيها أو العاملين فيها ، وهذا يضعف أثرها في المسلمين المهاجرين .

٢- زرع الخوف في قلوب الناشئة لدفعهم إلى ترك التدين ، وذلك بإشعارهم أنهم منبوذون بسبب تمسكهم بدينهم ، ويظهر هذا في حالة المرأة المسلمة أو الفتاة المسلمة بشكل قوي .

ويغيب عن هؤلاء المشوشين أنهم بصنيعهم هذا إنما يسهمون في ولادة الجفاء والعداء ، وخاصة في نفوس الأجيال الجديدة التي نشأت في بلاد الغرب ، فإذا حقق هؤلاء هدفهم في صرف ناشئة المسلمين عن الإسلام ، فإن الخاسر الأول هو الغرب ، فلا يظنن الذين يسعون إلى إبعاد المسلم عن دينه إنما يصنعون خيراً لأنفسهم وأمتهم ، ونحن على يقين من أن هؤلاء لو عرفوا الإسلام كما هو في نصوصه وكما يفهمه أهل العلم ، وكان لديهم إخلاص وتجرد ، لرفعوا أصواتهم داعين إلى دعم المؤسسات الإسلامية ، لأن الإسلام يصنع من معتنقه العامل به « إنساناً صالحاً » وصلاحه يعود عليه وعلى الآخرين بالخير والبركة .

ويجب على المسلمين الذين يُواجَهون بهذا التصرف الذي ينتهك الأخلاق ، ويهدر حق الإنسان في الحرية الاعتقادية ، ويتمادى في اختلاق الباطل ليطعن الحق ويشوهه في أعين الناس .. أقول : يجب على المسلمين أن يتحلوا بالصبر الجميل ، وأن يتمسكوا بالعدل ، عملاً بقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ ... **وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ... ﴾ [المائدة : ٨] .

وإن من العدل :

- **البعد عن زرع الأحقاد ضد أهل الغرب** ، فالمسلم يحبّ الخير للآخرين حتى وإن آذوه ، ومقابلة الإساءة بالصبر والعفو والإحسان خير للجميع ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ [فصلت : ٣٤-٣٥] .

- **العمل على التعريف المناسب بالإسلام كما هو في القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ** : فأهل الغرب ليسوا جميعاً حاقدين وكارهين للإسلام والمسلمين ، بل إن معظمهم على استعداد للتعامل الحسن مع مخالفيهم في الدين ، إذا تُركوا بغير تحريض ، وهم بحاجة إلى مادة علمية تساعدهم في إبطال إثارة المغرضين . وإذا رأيتم يا معشر المسلمين من أهل الغرب تأثراً سلبياً بما يروج عبر الصحافة وغيرها من وسائل الاتصال ؛ فإياكم وردود الفعل الطائشة ، بل فكروا بعمل إيجابي يترجم التزامكم بالإسلام العظيم ، ويستل المواقف السلبية من قلوب غير المسلمين .

أما « مسلمو الخدمة » فندعوهم إلى التحلي بالأمانة العلمية والإنصاف ؛ والأمانة العلمية تفرض عليهم أن يعترفوا بعدم أهليتهم « نفسياً » و « تكوينياً » للحديث عن الإسلام ، لأنهم ينظرون إليه بمقاييس غريبة عنه ، وهذا يوقعهم في أحد أمرين :

- **إما تحريف الإسلام** : حين يرغبون في إظهاره بصورة حسنة في أعين الأوروبيين بمقاييسهم .

- **وإما إظهاره على غير حقيقته** : إذ يقدمونه مفترياً عليه .

فنحن ندعو إلى التعرف إلى الإسلام كما هو من خلال أصحاب الاختصاص ، ثم بعد ذلك يحدد السامع أو القارئ موقفه منه ، وهذا طلب عادل لا ينكره منصف ، ولا يعمد إلى مخالفته صادق في إنسانيته .

رأينا في العنف

العنف .. ظاهرة عالمية ، وهي نتيجة مدمرة لمقدمات شاذة توفرت في واقع الناس . وهذه الظاهرة تطالب أصحاب الرأي والتيارات الحية في الأمم بتحديد مواقفهم منها ، وقد كتبنا في مناسبات كثيرة مبينين رأينا في هذه الظاهرة المقيتة ، والتي يحلو لبعض الناس تسميتها بـ (ظاهرة الإرهاب) .

إنّ موقفنا من العنف كان واضحاً جلياً قبل زلزال ٢٠٠١/٠٩/١١م في أمريكا ، والذي ما تزال الآراء متباينة في بواعثه ومن يقف وراءه ، وقد رأيت أن أنقل مما كتبت في الماضي موضوعين يوضحان الموقف الذي أراه صواباً من ظاهرة مخيفة مرفوضة : (العنف = الإرهاب) وهو موقف الغالبية الساحقة من التيار الإسلاميّ .

الموضوع الأول : ظاهرة العنف

الموضوع الثاني : عالجوا أسباب الإرهاب

ظاهـــــرة العنـــــف

أصبح العنف ظاهرة يتسع نطاقها ، وتزداد حدتها ، في عدد من أقطار العالم الإسلاميّ ، ويتبادل أطراف المواجهة الساخنة أشنع التهم ، ويحمِّل كل طرف خصومه مسؤولية اضطراب الأمن ، وزعزعة أسس الحياة الاجتماعية !

ونحن ندين كل أشكال سفك الدماء وترويع الآمنين ، ونرى أن ضياع الأمن في المجتمعات مرتعه وخيم على كل صعيد .

وندين في الوقت ذاته كل محاولة تهدف إلى إبراز جانب واحد من هذه المأساة المروعة ، ونرفض جميع المحاولات التي تقوم بها الأنظمة الحاكمة أو المعارضة المسلحة لفرض تفسيرهم لما يقع من دمار .. لأن هذه (العقلية القهرية) هي التي أفرزت بلاء العنف الذي تشكو من ويلاته الأمة !

ولقد تأملنا في ظاهرة العنف فرأينا أن أسبابها ترجع إلى :

- القهر السياسي
- الظلم الفئوي
- الصراع بين الحكام
- الحضور الأجنبي في القرار أو على الأرض .

أولاً : القهر السياسي

لا يخفى على ذي عينين أن معظم حكومات العالم الإسلاميّ تدمن (الإرهاب السياسي) ! . وأنها -بفضل أجهزتها الأمنية!- . أضحت مشهورة بقدراتها الفائقة على تكميم الأفواه ، ومصادرة الحريات ، وبث الرعب في القلوب !! فسجونهم يصدق فيها قول القائل :

والسجن بحرٌ من الأهوال قد هلكت ... فيه النفوس وأمواجٌ من الألمِ
جهنــمٌ وعذابٌ غيــرُ محتشمٍ ... لكل حرٍّ كريم النفــس محتشمِ

إنّ (إرهاب الدولة) يفرض على الناس تحديد المواقف ؛ فمنهم من تسحقه القوة فيستسلم ، ومنهم من يعتزل تيار الحياة ، ومنهم من يختار الهجرة ، ومنهم من يقنع بأعمال جزئية ، ومنهم من يحمل لواء الدعوة إلى إصلاح الأوضاع .. فإن أصابه أذى صبر ، ومنهم من يذهب إلى معاملة إرهاب الدولة بالمثل .. وهنا يظهر (عنف الشارع) في مواجهة (عنف السلطة) وينشر طرفا النــزاع المسلح (المبررات) التي تجعلهم مقتنعين بأن ما يفعلونه صواب وحكمة !!

إنّ طبيعة أنظمة الحكم في العالم الإسلاميّ هي المسؤول الأول عن بروز (ظاهرة العنف) ، وبدلاً من التفكير في أسباب المشكلات ، والعمل على توفير شروط صحية تخرج البلاد من ويلات هذه الظاهرة المدمرة .. فإن الأنظمة تصعّد من إجراءاتها القمعية ، وتسميها : إجراءات أمنية! ؛ فتوفر بذلك أجواءً تقتات فيها الكراهية من الكراهية ، ويتغذى العنف من العنف .. وتكون النتيجة ضياع سلامة العباد والبلاد !

إننا ندعو حكّام العالم الإسلاميّ إلى (المصالحة مع الشعوب) و(التعاون مع جميع القوى الفاعلة) على صياغة برامج :

- **تعيد إلى الشعوب حريتها .**
- **وتنهي من حياة المسلمين (حكم الفرد) و(حكم الأسرة) و(حكم العسكر) و(حكم المؤسسات القمعية) ..**
- **وتوفر كل أسباب الانطلاق السليم ، والسير القويم ، نحو تحقيق الأهداف الكريمة .**

وندعو الذين اختاروا (السلاح) وسيلة لتغيير الأوضاع الآسنة ، إلى إعادة النظر في (المقدمات) التي بنوا عليها فهمهم لظروف البلاد والعباد ، وأن يكفوا عن أعمال تزرع الأحقاد وتهين البلاد ، وأن يبتعدوا عن ممارسة القهر السياسي والإرهاب الفكري الذي يزعمون أنهم ينكرونه على أنظمة الحكم .

ثانياً : الظلم الفئوي

يوم برزت دول التجزئة في بلاد المسلمين في العصر الحديث .. ظهرت مشكلات التسلط الفئوي . الذي يرجع إلى غلبة الفكرة القومية في دولة التجزئة التي تعيش فيها قوميات متعددة ، أو التسلط الطائفي ، أو انفراد العشيرة بالحكم والثروات .

ورفض القوميون والطائفيون والعشائريون سماع شكاية من يعيش معهم ، وأصروا على الاحتفاظ بامتيازاتهم –التي وهبوها لأنفسهم !!– واستخدموا آلة الإرهاب والعنف الأعمى في إقناع الآخرين بالعدول عن مطالبهم ، والرضى بما هو موجود .. بل والثناء عليه .. وإلا واجهوا الهوان والفناء !

هذه العقليات الرهيبة زرعت أحقاداً وثارات في النفوس ، وكانت وراء لجوء مجموعات رافضة إلى (السلاح) الذي بات يهدد عدداً من الأقطار بالتجزئة من جديد ! . وهيأ جو الصراع المناخ المناسب لتدخلات أجنبية بشكل مباشر أو مستتر !

إنّ العنف النابع من مستنقع التسلط الفئوي سيستمر إلى أن يفيء المتسلطون إلى رشدهم . وحين يستعدون بصدق لإعادة ترتيب الحياة والثروات .. فإن هذه المشكلة ستجد حلولاً حقيقية ..

وإننا ندعو من أعماق قلوبنا هذه الأنظمة إلى مراجعة الذات ، وتغليب المصالح العامة ، وندعو معارضيهم أيضاً إلى مراجعةٍ .. تنأى بهم عن أن يكونوا أدوات بيد طاغوت زماني أخطر وأكثر شراسة من الطاغوت المكاني .

ثالثاً : الصراع بين الحكام

تستهلك الحروب الباردة والساخنة .. التي تدور رحاها بين عدد من أنظمة الحكم في بلاد المسلمين .. طاقاتٍ عزيزةً كريمة . وكانت هذه الحروب –وما تزال– سبباً من أهم أسباب ضعف أمة الإسلام في هذا العصر .

ومعلوم لدى العارفين أن الأنظمة المتصارعة قد لجأت إلى دعم (المعارضة) في بلد الخصم ، وساعدتها بتأمين المأوى والوثائق والمال ، وبتوفير وسائل التشويش على النظام العدو !! ، ومن ذلك : تزويد المعارضين بالسلاح في حالات كثيرة .

وأسفر عن صراع الأنظمة صراعات داخل عدد من الأقطار .. وكان عنف السلطة في مواجهة معارضيها الذين تعاونوا مع نظام آخر للضغط باتجاه تحقيق مطالبهم .. كان هذا العنف سبباً إضافياً في تفجير صراعات دموية بين السلطة ومجموعات معارضة .

إنّ أجواء الصراع هذه هشّمت الجبهة الداخلية والخارجية لأقطار العالم الإسلاميّ ، وحطمت أسس العمران في عدد من البلدان . وتهدد أخرى بالبوار .. وفتحت الأبواب أمام جشع طغاة الزمان ليدخلوا منها بأمان إلى قرار المسلمين وإرادتهم .. وإلى ثرواتهم وبلادهم !!

ولم تفلح ما يسمونه (المؤسسات الإقليمية) في حل كثير من الخلافات .. وتدخلت (المؤسسات العالمية)! .. ففرضت هدنة قسرية في أكثر من مكان .. وأخذت مقابلاً لها حريات وثروات وكرامات !! .

رابعاً : الحضور الأجنبي في القرار وعلى الأرض

وهذا الحضور غني عن الشرح .. فالأعمى يحس به إن كان لا يراه !! والغريب أن الحضور الأجنبي المباشر قد عاد إلى مواطن عزيزة .. بموافقة السلطات الحاكمة في عدد من أقطار العالم الإسلاميّ ! .. ولقد عاد هؤلاء المستعمرون الجدد مستغلين حالات النــزاع والحرب بين عدد من الحكام .. ورفعوا شعارات تخدع البسطاء .. مثل : (الدفاع المشترك) و(القوات الصديقة) و(المناورات المشتركة) و(الخبراء) ونحو ذلك .

إنّ هذا الوجود القوي للقوات الأجنبية على الأرض الإسلاميّة سيولد عند فئة من الرافضين فكرة مواجهته بالقوة .. وسترد السلطات المحلية والخارجية على الرافضين بقوة .. وبهذا يستمر مسلسل العنف !! .

وبعد :

فإننا ندعو جميع الجماعات التي باتت مقتنعة بأن (السلاح) هو طريق تحقيق ما تصبو إليه من خير .. ندعوها إلى مراجعة صادقة لأسس فهمها للواقع ، ولطريقة تعاملها مع أسباب أزماته ..

وهذا لا يعني أننا ندعوها إلى التنازل عن حق أو السكوت على ظلم .. وإنما نريد لها أن تسلك طريقاً إلى أهدافها يجنب البلاد والعباد الدمار ، ويحررها من سلاسل العبودية لطغاة الزمان الخارجيين ..

وندعو حكام المسلمين إلى مراجعة شجاعة لاختياراتهم السياسية وغيرها .. وإلى أن يعيدوا إلى الشعوب حقها في صياغة حاضرها ومستقبلها .. ولن يتحقق هذا إلا بالكف عن (القهر السياسي) و(الظلم الفئوي) ورفض (الحرب مع الأشقاء) وإبعاد (قوى الجشع العالمية من إرادة المسلمين وقراراتهم) .

« نقلاً عن العدد ١٧٦ من مجلة الرائد الغراء ، الصادر في شهر رجب ١٤١٦هـ- كانون أول/ديسمبر ١٩٩٥م »

عالجوا أسباب الإرهاب!

كان حادث تفجير حافلة سياحية في القاهرة يوم ١٦/٩/١٩٩٧م ، والذي أودى بحياة تسعة من السياح الألمان ، والسائق المصري ، وخلّف عشرات الجرحى ، مناسبةً للحديث عن (ظاهرة الإرهاب) وأسباب انتشاره في كثير من بلدان العالم .

ولا يتردد مسلم في استنكار أعمال العنف والتنديد بكل عمل يزهق أرواح الأبرياء الآمنين ، بصرف النظر عن دين وجنس ولون الذين يمارسون الإرهاب أو الذين يذهبون ضحيته ، كيف يتردد وهو يقرأ قول الله تبارك وتعالى : ﴿ ... **مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ... ﴾ [المائدة: ٣٢].

وكما أن إنكار التصرفات المؤذية والمزهقة لحياة الإنسان واجب لا يصح التخلي عنه .. فإن البحث عن الأسباب الحقيقية المحرضة على القيام بأعمال إرهابية أكثر وجوباً ، لأن معرفة الدوافع أول طريق معالجة هذه الظاهرة المفسدة في الأرض ، والعجيب أن تصر قوى عالمية ومحلية على إقصاء

البحث عن الأسباب من دائرة الاهتمام .

فما هي أسباب العنف والإرهاب ؟

إن السبب الرئيس لبروز الأعمال الإرهابية والعنفية كامن في الابتعاد عن الحلول الحقيقية لاختلال التوازن في العلاقات بين قوى شعب واحد ، أو بين شعبين أو أكثر . لأن عدم وجود حلول للأزمات يؤدي إلى تراكم مقولات وتفسيرات تعتمد على ثقافة ومصالح ، وقد تفرز تلك المقولات منظومة فكرية تبيح لأصحابها القيام بأعمال تفوح منها رائحة الدماء ، وتجلب –إذا اتسع نطاقها– الدمار النفسي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي للجماعات والشعوب .

هذه الحقيقة نراها في مواطن كثيرة .. نذكر منها :

١– **إسبانيا** : التي تعاني منذ عقود من النـــزاع القومي المتمثل في رغبة شعب الباسك في تحقيق وجوده القومي وتكوين دولته ، وحين اصطدمت هذه الرغبة بإنكارها وملاحقة أصحابها برزت منظمة ETA التي تبنت القيام بأعمال إرهابية ، مثل : مهاجمة مراكز الشرطة ، ووضع متفجرات في الأماكن السياحية ، وتفجير سيارات ، واختطاف أرباب مال وأعمال وموظفين كبار وقتل بعضهم .. الخ. وقد فشلت محاولات الخروج من الأزمة المزعجة على الرغم من الزعم بأن السعي لاحتوائها مستمر .

٢– **إيرلندا الشمالية** : اعتمد الكاثوليك في إيرلندا الشمالية على العصبية المذهبية والقومية في المطالبة بالانفصال عن بريطانيا العظمى ، وحين انسدت قنوات التفاهم مع السلطة المركزية ، ظهرت منظمة الجيش الجمهوري (IRA) التي تبنت العمل المسلح لإزعاج الحكومة وإرغامها على التفاوض بخصوص مستقبل الإقليم ، وانتقلت الحكومات البريطانية المتتابعة من موقف الرفض الكامل لأي تفاوض إلى الاستعداد لتناول الموضوع مع أطراف النـــزاع الداخلية والخارجية ، وكان للوساطة الأمريكية تأثير في التوصل إلى هذا الرأي .

٣– **الفليبين** : شعر المسلمون في الجزر التي يشكلون أغلبية السكان فيها أن هناك هجرة منظمة تهدف إلى جعلهم أقلية في مواطنهم ، وأن هناك إبعاداً متعمداً لهم عن مراكز السلطة في جزرهم ، وأن ثقافتهم الإسلاميّة تُحاصَرُ من قبل السلطة المركزية في دولة الفيلبين الحديثة ، فلما لم تستجب الحكومات لمطالبهم في الحفاظ على خصائص منطقتهم ، أدى ذلك إلى ظهور جماعات حملت السلاح وسيلة تعبير عن رفض سياسة السلطة المركزية ، وبعد سنوات من المواجهات الساخنة توصل طرفا النـــزاع إلى حلول نرجو أن توقف حمامات الدم والدمار .

٤– **كشمير** : وسبب محنتها راجع إلى عدم الوفاء بشروط تقسيم القارة الهندية، حيث نصت

على أن الأقاليم التي يشكل المسلمون أغلبية سكانها فإن من حقها أن تنضم إلى باكستان ، ولكن الهند رفضت ذلك ، وباشرت بأعمال تهدف إلى تغيير التركيبة السكانية ، وإلى إضعاف الانتماء الإسلاميّ. وهذا دفع قوى كشميرية إلى الاحتجاج ، ووصل فريق منهم إلى حمل السلاح والقيام بأعمال تزعج السلطة ، وتنقل قضيتهم إلى المحافل الدولية ، وكانت هذه الأزمة سبباً في حروب طاحنة بين الهند وباكستان ، وهناك الآن محاولات للتفاوض بين الدولتين على إقليم كشمير ، وهي مفاوضات متعثرة ، ونرجو لها النجاح.

٥- **فلسطين** : وترجع ردود أفعال أبناء فلسطين هذه الأيام إلى سببين : أصلي وفرعي ؛ أما **السبب الأصلي** فإنه القرار الجائر الظالم الذي اتخذته بريطانيا العظمى ، والقاضي بإقامة دولة قومية لليهود على أرض فلسطين ، ونتج عن هذا ما هو معروف من هجرة اليهود إلى فلسطين وتهجير أبناء فلسطين ، وها هي مجتمعات اللاجئين داخل فلسطين وخارجها تذكر صباح مساء بهذه الجريمة الشنعاء ..

أما **السبب الفرعي** فيتمثل بالإذلال والاحتقار ، ومصادرة الأراضي ، وإقامة المستوطنات ، وفرض الأمر الواقع بالقوة .. وذلك على الرغم من معاهدات اعتراف منظمة التحرير بالكيان الصهيوني ورعاية أمريكا لاتفاقات أوسلو الاستسلامية !!

٦- **الجزائر** : منذ استقلال الجزائر عن فرنسا عام ١٩٦٢م قام فيها نظام العسكر الاستبدادي ، فتجمعت عوامل دفعت مجموعات إلى التفكير في مقاومته بالسلاح، ثم جاءت حوادث عام ١٩٨٨م ؛ فأطلقت الحكومة الحريات ، وأذنت بتشكيل أحزاب وإجراء انتخابات ، وتوارت جماعات العمل المسلح ، فلما بدت بوادر فوز ساحق للجبهة الإسلاميّة للإنقاذ ، وانقض العسكر على السلطة ؛ فأزاحوا رئيس الجمهورية ، وأوقفوا المسار الانتخابي ، وقمعوا الحريات .. أطل قرن العنف من جديد .. ومن يومها فإن الدماء تسيل والأرواح تُزهق والدمار ينتشر .. وتطورت الأمور إلى ألوان من القتل الوحشي للكبار والصغار والنساء والرجال .. و لم يعد أحد قادراً على إيقاف المجزرة الرهيبة أو معرفة القتلة الحقيقيين !!

٧- **مصر** : سبقت مصر معظم الشرق الإسلاميّ بالعلم ، وتخرج من مدارسها ومعاهدها وجامعاتها أجيال أخذت بقسط وافر من المعرفة ، وهذا أثر في التكوين الفكري والاجتماعي ، وباتت جماعات مثقفة تشعر بأن لها دوراً في إنهاض الأمة والمشاركة في الحياة العامة .. هذه الجماعات اصطدمت بنظام سياسي يعتمد على الجيش ومؤسسات أقامها لحمايته .. فلما يئست جماعات من حدوث تغييرات تسمح لها بدور مناسب .. تراكمت الحساسيات فولدت منظومات متقاربة ، وتعتمد جميعها على فكرة مقاومة الحاكم بالسلاح .

وشهدت أرض الكنانة مواجهات عنيفة بين الجماعات المسلحة وبين نظام الحكم ، وارتفعت أصوات تدعو إلى التفاهم ، ولكن السلطة آثرت (الحل الأمني) ، ورفضت كل محاولات الوساطة .. وظنت أنها قمعت المعارضة المسلحة .. ولكنها في كل مرة توحي بذلك يأتي ما ينقض هذا الادعاء .

من هذا العرض الموجز لانتشار ظاهرة الإرهاب يتبين لنا أن الأزمة الحقيقية كامنة في عجز أطراف النـــزاع عن العثور على صيغة تفاهم تنـــزع فتيل المواجهات الدامية ، ويُظهر العرضُ لكل منصف أن دور الحكومات أساسي ، إذ يجب على نظام الحكم ألا يحصر نفسه في أحكام منظومته الفكرية ورؤيته المصلحية ، ولا يصح أن يغمض عينيه عن رؤية المتغيرات العميقة والحاجات الضرورية التي تحيط به من كل مكان .

لقد بات واضحاً للذين لا ينظرون إلى ظاهر عمليات الإرهاب أن **عنف السلطة** الحاكمة ، أو تجاهلها للمشكلات الجوهرية ، هو المسؤول عن **عنف المعارضة** ، وأنه آن الأوان لكي تراجع الحكومات خياراتها السياسية والأمنية ، إذا أرادت لعاصفة الإرهاب أن تهدأ .

وهذه الحقيقة لا تعفينا من إدانة **عنف المعارضة** ، كالذي حدث في القاهرة ، لأن الإنسان العاقل لا يلجأ إلى أسلوب غير حضاري في مواجهة المشكلات التي تعترضه ، بل عليه أن يعتصم بأخلاق وأعمال تدل على أنه ليس كرجال نظام الحكم الاستبدادي ، يفكر في السلاح لحسم الخلاف السياسي .

إننا ندعو جميع أطراف النـــزاعات إلى تحكيم العقل ومصلحة العباد والبلاد عندما يحتدم الخلاف ، وإلى البعد عن التهديد باستعمال القوة ، وهذا لا يتأتى إلا بالتوقف عن الظلم ، وإلا برد الحقوق إلى أصحابها على المستوى الداخلي ، بين الحاكم والمحكوم ، وعلى المستوى الدولي بين الدول والشعوب .

« نقلاً عن العدد ١٩٣ من مجلة الرائد الغراء ، الصادر في جمادى الأولى ١٤١٨هـ - تشرين أول/اكتوبر ١٩٩٧م » .

ملاحظات :